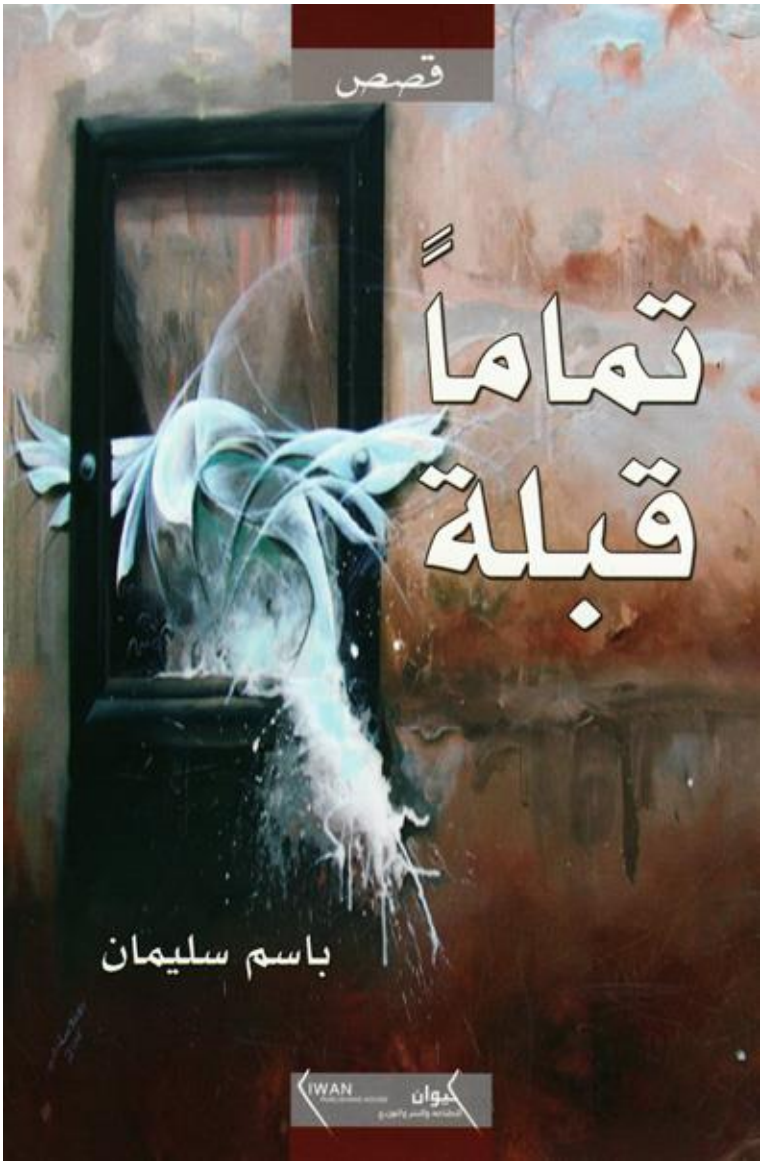
قصص
تماماً
قبلة
باسم سليمان
IWAN
إيوان

تماماً قبلة

باسم سليمان

إلى وجهة زاوية...

اغتصب الجدارُ الزاوية، ليتآخى مع جدارٍ آخر. حبلت الزاوية، أصبحت قائمةً، فغدت بيتاً.
سكنتْ عنكبوتٌ الزاوية، اصطادت فراشة وأشياء أخرى. صعدت الزوجة الكرسي مع مكنستها؛ لتزيل ساكنَ الزوايا، زلّت قدمها، سقطت، فارتطم رأسها بزاوية حادّة، وماتت.

اللـــوحـــة

الفصل الأول: اللـون

- "لا تتذكّريني إلّا في الأماكن التي أحبّ...! القبور أبوابٌ مصمتة... المتسولون للماضي، هم فقط الذين يجلسون على أبواب القبور؛ إلا أنّ الإنسان غايته أن يمشي قُدماً في تلك الطرقات اللانهائية، فقبل أن تجوب الكون، لا يحقّ لك أن تقف في حضرة الخالق؛ لتقصّ له حكايتك، فالله مستمع جيد".

وضعتُ الزهور على قبره وكلماته تتساقط في داخلي: "الزهور خُلقت للريح أو لأصابع عاشق، فلا شيء يبرّر للطبيعة قطف الأزهار إلّا حرارة الخلق الكامنة في قلب العاشق".

مارستُ دور الأرملة، وكأنّي بذلك أطيل وجوده في المكان والزمان، وأعرف أنّه سيقول: "مازلتِ تحبين أن تتلامس يدانا ... وعلى الرغم من جمالها إلّا أنّها أكثر الأشياء خداعاً".

لم أكن أرملته في الحقيقة، إذ لم نكن زوجين إلّا وفق منطق العيش معاً، فالقانون ليس للخاصة بل للعامة.

في البدء، لم يكن هناك من قوانين؛ خُلق الإنسان بكلمة، وكان يعبّر عن التزامه بكلمة، وبسبب فشله بامتلاك الحرية الكاملة فقد تميّزهَ؛ لذلك كان وجوده الجديد عبر سنّ القوانين التي جعلت منه عبداً.

كنتُ أشتهيه أكثر، عندما كان الإله المكنون فينا يتفجّر فيه، فيلقي كلماته كأمواج البحر على الرغم من اختلافها، إلا أنّها سيماء وجه واحد. يقف في وسط الغرفة، ينفث دخان سيجارته وكأنّها العماء الأول ويبدأ بعملية الخلق.

قال لي مرّة: "يجب على كلّ إنسان أن يجرّب السجن الانفرادي؛ لأنّه كالقبر، وهذا المدفن الحيّ هو من يجبر الإنسان على الخروج من الأبعاد المكانية وارتياد حالات روحية تعيد له انتماءه الأول".

بكيته بصمت...

"الحزن أجمل الأشياء، وهو نادرٌ جداً! فاستعمليه بعقل كبير"

بقيتُ معه ساعة كاملة، محتضنة رأسه بشدّة، كنتُ فارغة من كل شيء؛ إلّا من سكينةِ قمرٍ في وسط السماء.

"سأعطيكِ كلّ ما أملكه، عندما أموت"

نمْ يا ولدي، فالصبح قريب... ثم اتصلتُ بالمدينة أُعلم أخاه بموته.

أجمل الأشياء التي تحدث في حياتك! عندما تصبح عجوزاً، فتستطيع النظر إلى الخلف دون الخوف من أن تفقد الكثير من الأشياء التي أمامكَ، وهكذا تصبح الذكرى مستقبلاً جديداً يجب أن تعيشه بكلّ حبٍ، ولربما تعيد تقييم تجربة لم يُتح لك الزمن تأملها جيداً، وهكذا تحصل على المعلومة كاملة، فالإنسان ابن الخطأ، ومع كثرة الأخطاء؛ من المفترض أن يقترب من

الصواب الواجب في النهاية، فالاحتمالية هي القانون الدائم، والكون ما هو إلّا عيوننا.

****

كنتُ أخاف فرشاة الرسم، فأستخدم أيّ شيء آخر كي أرسم، فاللوحة التي أطلقت عليها اسم "رماد" لم تكن إلا ثدييّ المضطجعين على القماشة البيضاء. كانت اللوحة على أثر اللقاء الخامس، فمنذ زمن طويل لم تؤطّرني عينا رجلٍ وكأنّهما يدان. اختصرتُ حينها السهرة في بيت أخيه، وصعدت إلى بيتي الموجود فوق منزلهم في الطابق الثالث، تستبيح رائحةُ رجل يباسي، كأنّها احتراق غابة. دخنت سجائري الأخيرة فيما المرسم المنتظر منذ شهور وقماشته البيضاء، ينتصبان أمامي.

أخذتُ شكل الكرسي، يدي ملقاة على بطني والأخرى تحتضن ثديي. أرغب بالاستحمام، فبدأت أخلع ثيابي، ولكنني لم أغادر الكرسي بعد، متقصّدة لمس جسدي والكشف عن أعضائه السرية وكأنّ اليد يدٌ أخرى، دفعتها في أجمتي الصغيرة، باحثة عن أرنبي المنسي، لتبدأ مطاردة بعينين مغمضتين عن ملامح وجههِ، حركات يديه، امتصاصه لسيجارته، صوت أنفاسه التي اختلطت مع أنفاسي، ليبتل عضوي الجاف.

أفتح عيني، أغادر الكرسي باتجاه قماشة اللوحة، وأدعك صدري باللون الأزرق ومن ثم أحتضن اللوحة. فيما بعد قال لي: "لو أنّكِ لم تحتضنيني بقوة".

اللوحة معلّقة في غرفة النوم، لقد اختار المكان بنفسه.

لم يصبح الرسم هاجسي إلّا منذ أعلن وجوده في حياتي. كان لقاءً مدّته فنجان قهوة، مع تعارف قصير، لم يكن ينظر إلى أحد بينما يتكلّم، ولكن إيقاعه في الحديث كالمطر الخفيف، يبلّلك دون أن تشعر، وهكذا كنّا نصغي إلى كلامه أنا وأخوه وزوجة أخيه بهدوءٍ من يراقب ظلاً ينمو، فأخصّ نفسي بالتمعّن بوجهه ولا أظنه وقتها قد انتبه لذلك، لكنّه قال لي فيما بعد: "لا تنظري إلى الأمور مباشرة، سوف يفوتكِ الكثير لأنّني أكثرُ من وجه وأبعد من مسافة قد تفترضينها".

أصبحت مع الوقت أستخدم الفرشاة بسهولة، فرسمت وجهه؛ لكنّه أصرَ على أن تباع تلك اللوحة لاحقاً، وقد وافقته، بعد أن طلب ذلك بالجدية نفسها التي أخبرني بها، بأنّه يحبني.

ظلّت لوحة وجهه عندي، إلى أن أصبحنا نعيش معاً، وقتها قال لي: "لا أطيق هذه اللوحة، إنّها تشبه شخصاً قد سرق ملامح وجهي!".

لم يتّضح الأمر لي إلّا بعد وفاته، عندما رسمتُ له لوحة أخرى، قال عنها كلّ من رآها: هل هذا ابنكِ؟

انتقلت للعيش معه في القرية، وبدأت بإقامة عدّة معارض مشتركة مع رسامين آخرين وأصبحتُ متفرّغة للرسم، وحقّقت شهرة لا بأس بها، جعلتني أقيم معرضاً فرديّاً، لكنّه بقي اللون الوحيد الذي لم أمتلكه رغم الحيازة

الصحيحة له، وبالمقابل هو لم يعمد لامتلاكي لأنّ أجمل ما فيّ هو ظلّي الذي تملكه الشمس وحدها: "عندما أمتلكِكِ سوف تهرمين، فالزهرة لم تعتدْ نفسها؛ لذلك لم تتغيّر وظّلت النحلة تأتيها، أمّا الإنسان، فكان خلقاً آخر، وعندما اعتاد نفسه ملكتْه، فأصبح ما هو عليه".

****

براءة الطفولة؛ هذه الكذبة الكبيرة التي يتم تسويقها بكلّ خبثِ مَن يختبئ وراء حلمِ نظافةِ الراشدين. كنتُ سمينة في طفولتي، وأنفع كفراش كما قال الصِبية. تلك البداهة التي تتناساها النساء في غمرة الحبّ، أن الشكل هو العنصر الأهم لدى الرجال، وهكذا رفضَ حبّي له، وأعلن أنّه لا يستطيع أن يحب فتاة سمينة إلى هذا الحدّ! أيَّ حدّ؟!

فهمت حينها إلى أي حدٍّ يستطيع أن يتمادى الإنسان في أحكامه من غير أن يعلَقَ به ما يلوثه، فكل ما يُغسل مقبول، المهم أن يبقى خفياً، فنحن نأكل علانية ونخرأ خفية.

الجميع يعمل على تنظيف مرآته؛ إنّه التناسي لأجل مقاربة الصورة التي نقبل بتأطيرها لنا.

****

وجدتُ نفسي وحيدة مع تركة أبي من الكتب التي كنت أقرأها بعيداً عن نظر أمي، وعلى ما أظن كانت متواطئة معي في ذلك، وهكذا عملتُ على اختيار الكتب بشكل يخدم تطورات جسدي ونفسي، ومع الوقت بدأت أفهم الإشارات بصورة تثير فيّ الضحكَ في الوقت الذي يفترض الآخرون فيّ الغباء، ويرون في الفارق العمري حاجزاً لا يمكن تجاوزه، وهكذا لم أوفر الوقت في تجربة أبعاد الخطوط الحمراء، فكان الريجيم الخطوة الأولى التي عملتُ بها على نحت جسدي، ومع الوقت أصبحتُ أرى صورتي المتخيلة تأخذ مكانها في الواقع، وخاصة عندما أمارس عملاً ما، فقد كانت سمنتي السابقة تفرض عليَ شكلاً في التصرف، أما جسدي الجديد فأُدهشني بطريقة غير متوقعة. لم أحرم جسدي الجديد المتفق مع صور المجلات والتلفاز، من التعبير عن جماله، فكنتُ أقف أمام المرآة أبدّل ثياباً بأخرى، أتعرّى، وأحاول أن أكتشفه بعدسة مكبّرة، كأنّي أردت أن أحفظه غيباً.

كم عدد شاماتي؟ أعتقد أنّها خمسَ عشْرةَ شامة، ولكنّه أكدّ لي، أنّها ثمان وعشرون، وقتها قلتُ: يا لها من مصادفة تأتي على عدد الأحرف، أجاب بابتسامة من اكتشف شيئاً: "المهم أن أجيد تركيب لغة تحمل طموحات هذا الجسد، فلو كانت ستاً وعشرين شامة؛ لكنّا في بلد آخر!"

****

من يحفر في الأماكن الرطبة سوف يجد الماء، وأنا وجدتُ الحبّ ولذّتي عبر رجال الروايات الذين لم يبخلوا بحبهم وشهواتهم العارمة؛ فحين يبدأ الكاتب بالبوح ولا يجد صوتاً نسائياً يفرض نوعاً من الحشمة تخدم مصالح الذكور في زيادة تخصيص المرأة، فينطلق معبّراً عن شهواته؛ لذلك كنت أفعلها مع

جميع رجال الروايات وحتى مع الكتّاب؛ إذ كنتُ المرأة السرّية لهم، وأسخر منهم، لعدم قدرتهم على اكتشاف خيانتي.
الخيال عالم نظيف، لكنّه الابن الحرام للواقع.
****

كان لطيفاً كجدّ، إلا أنّي كنتُ أكثر من حفيدة مفترضة، فهو صديق والدي، إنّه يعيش وحيداً في بيته بعد وفاة زوجته واستقلال أولاده، رافضاً الانتقال للسكن لدى أحد أولاده. إنّه من المدرسين الذين يرون التدريس رسالة خالدة، احتجته في بعض دروس قواعد النحو، ومن خلالها تعرّفت على عالمه الهادئ المملوء بالألوان.
إنّه يرسم، ومعه اكتشفت فكّ طلاسم اللون الممزوج، فتح لي غرفته السرّية ورأيتُ تجاربه الأولى كلون يتحسّس الظلام من حوله، لكنّه كان ضوءَ شمسٍ لسرعة تطوره، وكنتُ كغيوم الشتاء ما لبثتْ أن أمطرتْ؛ لماذا لا أكون نموذجه، فكل الرسامين يحتاجون إلى نموذج.
عرضت الأمرَ عليه كامرأة مجرّبة، أذهله العرض السخيّ ومن الغباء أن يرفضه، فقبل معي شرطَ أن يبقى الأمر سرّاً.
وجهي، كان اللقاء الأول، فجلستُ على الكرسي، مستذكرةً مَن خلدهم الرجال الذين أدمنوا اللون كمخدر، وبين ضربة للريشة وأخرى، أصبحتْ أنفاسه أقرب إلى وجهي.
يتعمّد أن يوازن بين توضّع رأسي في كل جلسة، وأنامله التي تتحسّس وجهي بانتباه من يمشي في حقل ألغام أصبحتْ أكثر خبرةً لتلامس لغم الشفة من غير أن تنفجر، فيحدث أحياناً إنذار خفيف، يحذّر من عضّة، فيعلّق وقد احمرّ لونه: "لم أعلم أن لديّ كلبٌ صغيرٌ هنا"، فأردّ بزمجرة خفيفة.
وجهي يتوسّط اللوحة كغيمة صيف وحيدة. قلتُ له: لم أرتكب جرماً أستحق عليه قطع الرأس، وعدت إلى مكاني، وكأميرة أمرته بمتابعة الرسم، لم أعطه الفرصة ليأخذ نفساً، فككتُ أزرار القميص، فنفر ثدياي ونفرتْ دهشته كبحرة في بيت شامي لم تمارس قذف الماء من زمن، أشرتُ له، أنْ ارسمْ، فتابع كمن يعترف بتقاليد المهنة، لكن كطبيب لم ينفعه قسَمه من أن يسترق الإحساسَ وهو يفحص مريضته الأولى.
تتابعت لقاءات الدرس والرسم، وأخذ يجلس بقربي بعد أن كان يجلس في مواجهتي، لم يترك سبباً يمرّ دون أن يستغله للاقتراب، كأنّ المكان يضيق رويداً رويداً، فلقاءات العشاق تعشق الزوايا. عملت على تفريغ صبره على العكس من لوحاته التي تكاثرت على الرغم من أن جوهرها كان واحداً.
في الدرسَ الأخير، شكرته بهدوء، لكنّه لازال صامتاً كحجر ينتظر الإزميل، وكاشتعال عود الثقاب أطبقتُ على شفتيه ، وتركته أبيضَ ... كلوحة لم ترسم.

***

لم أتوقّع هذا! كلّ ما افترضته؛ أنّه رجلٌ بأسلوب غامض- كان سجيناً مدة عشرين سنة - إنّه السّلم الخبيث لتوافق الاتجاهات المتعارضة، فالوطن الحمار لا يحتمل إلّا راكباً واحداً ليسوسه.
استفسرتُ عنه كمريض يريد أن يقف على أبعاد مرضه ودوائه. كان لا يأتي من القرية إلّا عندما يجلبُ بعضاً من نتاج الأرض لأخيه أو لشراء بعض الحاجيات.
تشاركنا جميعاً في تذوق النبيذ الذي أحضره. إنّه كالغبار يستقرّ عليك، لكنّه غبار رطب يلصق بقوة، لم يتحدّث عن فترة سَجنه، بل تكلّم عن حال الغابة المتدهورة في أعلى الجبل بطريقة تفيض إحساسا، حتى لتخاله تحول إلى لون أخضر.

***

الأخضر لون أستاذي القديم، والأحمر للصيف وباجتماعهما تكون الثمار.
كان روايتي المفضلة التي تنتظر صفحاتها البيضاء أن أملأها بالحبر الذي أريد.
عمّ أبحث معه؟ هل سقطتُ في فخي الذي نصبته أم إنّه الحبّ؟! تلك العشبة غريبة النمو، التي تكسر احتمالات الفصول، لم أحسم ما حدث إلى الآن!
ولربما هذا أفضل، فبعض الطرق يجب أن تسلك دون آرمات[1].

***

بعد تلك القبلة، حدث نوع من التوجّس من كلينْا، فتلك الجرأة التي عرفناها سوية، اختفتْ ودهشتنا الطفولية احتلمت، أصبحت لقاءاتنا عملية، متركّزة على دروس في الرسم وحديث في الألوان، إلى أن طلب منّي عدم القدوم، قالها بلون أزرق بحري، ورمى بموجته الوحيدة على شاطئي -لأنّي أحبكِ – لم أسمع إلّا دقات قلبه، بعد أن لذْتُ بصدره باكية وهمست بالكلمة السحرية التي فتحت عالم الروايات لي، ولرجل من لحم ودم: إنّي أحبكَ.
عصرني كما اللون، فتمدّدتُ على مساحات اللمس، مغمضة عيني، متذوّقة الواقع. شفتاه كما المحيط يحدّ القارب المتمايل على نبض قلبه، أحاطتْ بشفتيّ المسترخيتين كما المرساة في عمق القبلة.
التصقتُ به كطابع بريد، فكان الرسالة المبعوثة إلى جسدي الأكاديمي، فقطرة المطر أكثر من هيدروجين وأوكسجين، نهداي اللذان أنهكا فرشاته، سقطا ساجدين لجيش نمل الأصابع أمام كومتين من القمح الطري، اجتاحني شعور الزاوية التي أريد أن أحشر فيها، لم يعد حساب مثلثي الصغير يساوي مئة وثمانين درجة، ولربما يمكن تقديره مرتبطاً بمجموع شهقاتي مضافاً إليها معدّل الضغط الدموي في الشرايين، في النهاية اعتذر كما هو متوقّع مع عينين دامعتين، همستُ بأذنه: قليل من الحرام يفيد.

---

[1]- لوحة إعلانية

أرسم بكثرة وكأنّي أعوّض ما فاتني، أرسمه هو، لا أحد غيره، محاولة إخراج رجل من العتمة، فشعوري أنّه دائم الهرب منّي، دفعني لأنّ ألون مصائدي في كل الطرقات المتوقعة التي سوف يسلكها، لم يهتم بي حتّى وإن بصورة غير مباشرة، ولكنني في استرجاعي المشهدي للقاء، كانت تتكاثر الطيور خلفه وكأنّه يلقي فتات الخبز خلفه: أيّها الرجل الأحمق توقفْ، ههنا أنثى تبحث عنك. فأحيانا يخيّل لي، أنه ليس أكثر من شخص في قصة منداحة في هدوئي في تلك المكتبة الآمنة.

علمتُ مسبقاً بقدومه، فأعددتُ العشاء وساعدتني أخته بتواطؤ الإناث، لم يأكل كثيراً، رغم انهماكي بإغرائه بتعدّد أصناف الطعام، وسخرتُ من نفسي فيما بعد، فقد قلن لي: إن طريق المرأة إلى قلب الرجل معدته.

أقلقتني مغادرته طاولة الطعام مبكراً، فشعرتُ وقتها أن الوصفات القديمة للجدات تنجح مع الرجل الذي يضاجع بعد أن يملأ معدته.

تبدّد شعور المرأة الرخيصة الذي رافقني، عندما دلف إلى غرفة المرسم المفتوحة الباب قصداً بعد أن استأذن وبقي هناك إلى أن أنهينا طعامنا، كنتُ قد أخفيتُ لوحة رسم وجهه المباشر وتركت غيرها من اللوحات، لحقنا به ولكنّه لم يمهل أحداً ليسأله عن رأيه، بل بادر هو: أنت ترسمين لعمر مضى في أكثر لوحاتك، وكأنك مراهقة تحب للمرة الأولى من خلف الشباك -صمت للحظة لم تسمح لأحد أن يتدخّل- ومن ثمّ تكلّم: "اضربي موعداً، وتلمسي اللون بأصابعكِ".

****

تنقّلت كلمات الحبّ كالقطط المتشرّدة بيننا. الرجل العجوز الذي كان صامتاً كما بدا لي، بدأ يجيد الكلام، الكلام في كلّ شيء، لذلك كنّا نمارس الجنس متسرعين وكثيراً ما كان يكتفي بإعطائي جرعتي منه بواسطة فمه، بعد أن يخلع منه فكّه، ثم نثرثر عن الله والسياسة والموت والبوظة وأشياء أخرى.

قال لي: "يجب أن تكوني عجوزاً!"

رددت عليه: لماذا لا تكون أنت شاباً؟

فأجاب: "على أحد منّا أن يكون قريباً من الموت، هكذا ترى الأمور بطريقة أوضح".

كم أنتَ وحيد أيها الموت! لا تدوم صداقاتك أكثر من عدة شهقات متتالية!

****

لو ينسى القدر بعض التفاصيل. لو يتأخّر، ولكنّه اعتاد الكمال، وإن حدث النسيان؛ لعاد وأكمل مهمته بتمام أكبر من السابق، فمنذ سنة وقف رجلٌ بباب البيت، وسأل عن أمي، ... للحظات، لم أفهم لماذا تلك المعانقة التي أخرجتْ أمي من تحفظها!

إنّه شخص من الذكريات القديمة المتمسّكة بالحياة وليس مجرد صورة بالأبيض والأسود للذكرى. للحقيقة، إنّ هذا الشخص قد حملني طوال فترة دفن والدي وأخوتي.

إلى الآن مازلت أؤمن أن الوطن من قتلهم، إذ فجّر اغتيالُ والدي الغضب العارم على كل الاختلافات السياسية التي قادتْ إلى مؤتمر حوار وطني، أعادوا فيه توزيع الثروات فيما بينهم إلى أجل مسمى.

التضحية لازمة وتصبح ذات جدوى أكثر عندما تكون الأضحية في معزل عن أية تكلفة!

أبي وهذا الصديق رفيقا نضال. وهذا يكفي! هذا ما قاله الضيف، ليغلق وراءه كل هذا الماضي.

أمي اكتفت بالتدريس، ولم تفعل كبعض النساء اللواتي انخرطْن في العمل السياسي إثر انخراط أزواجهن به، بل دوماً كانت تراه عملاً قذراً، مهما كانت نظافة ثياب من يمارسوه، لربما تكوّن لديها هذا الموقف من جراء اغتيال أبي.

إنّي لا أملك ذاكرة من ذلك الزمن، لكنني اكتشفتُ فيما بعد من حوارات ومتابعات والدي السياسية، أنّها كانت من النساء الناشطات في الحركة النسائية في ذلك الزمن. لقد أبعدتني عن تلك الأجواء قاصدة وعملتْ جاهدة على تقديم حياة جيدة لي؛ إذ عملت كمدرّسة خصوصية في البيت، وهذا ما أمّن دخلاً جيداً وسمح لي بالكثير من الحرية بعيداً عن عينيها وأنا أطالع كتب أبي وكانت سعيدة جداً وهي ترى موهبة الرسم تتوضّح من خطوطي.

لم أكن صديقة جيدة لأمي، ولم تكن هي كذلك! كنّا أمّاً وابنتها، الآن أتمنّى لو كان بيننا حديث الأم وابنتها عن تلك الأشياء النسائية الصغيرة، وهنا لابدّ من الاعتراف أن مكتبة أبي؛ هي الأمّ الفكرية لي.

كم شعرت بالقدسية وأنا أعيد ترتيب المكتبة من جديد، أمسح الغبار عنها وبعناية كبيرة أعيد تنظيمها بالشكل ذاته الذي كانت عليه، وكنت بشكل دائم، أفتح الصفحة الأولى لبعض الكتب وأستذكر التواريخ التي أعدتُ فيها قراءتها إذ كنت أدّون تاريخ كل قراءة جديدة للكتاب.

توفيت أمي بعد طلاقي بسنة، رجعتُ إلى البيت لأجدها متوسّدة المكتب في غرفة المكتبة-غرفة أبي- ولم تنهِ فنجان قهوتها. ومازال رمادها سيجارتها متماسكاً في المنفضة وتحت وجهها تموضع دفترٌ لأبي، كتب عليه بعض رؤاه السياسية.

عرفتُ الموت كثيراً في الروايات التي قرأتُها. الموت في الروايات لا يفاجئك بل يترك لكَ وقتاً لتتأمل تفاصيل الحزن، والاستمتاع به ولربما تذرف بعض الدموع حيث يقف الموت أمامكَ كحيوان يدافع عن فريسته، فتنتظر كي تتم أعراف الوجبة لتتلمظ فيما بعد حزناً يختصره الأسود، مددتُ يدي -وصوتي يصيح عليها- جسستُ نبضها لم يكن هنا ولا هناك.

(نمْ يا ولدي؛ لم أكن أمّاً) لكن عندما وجدتُ أمي غافية فوق ذراع أبي أدركت حنيّة الموت عندما يأتي كطفلة ترفل بثوبها الجديد الذي ابتاعه والدها البارحة؛ لتضمها أمها وتسقيها دمعاً حلواً جداً كأحلام الأطفال.

******

يترك مدرّسي العجوز الباب مفتوحاً لأدخل عليه كشخص من البيت، فبعد أن كبر الأولاد لم يدخل أحد بيته بدون أن يقرع.

هنا، حيث القبلة الأولى، حيث اختار أن يكون المرسم مركزَ كونه، وجدته مجعداً على الأرض والريشة لم يجف لونها بعد. بكيته بحرقة الزوجة ولبست الأسود عليه حتى الأربعين ولم أمارس عادتي السرية حتّى طهرتُ أربع مرات من العادة الشهرية.

أربع وفيات كانت أمي الخامسة، لا بدّ أنّي سأكون وحيدة عند موتي، قلتُ له: تركتني وحيدة تماماً كما كنتُ في مكتبة أبي، لكن دون كتبه، أأنت الكتاب الأخير؟ أسألكم أيها الموتى: هل ستخرجون من ماضيّ؛ لتحصوا الأنفاس الأخيرة لي بابتساماتكم المتوقدة بالبخور؟

*****

كان أبي آخر رجال العائلة، فنحن عائلة صلاتها رحمية، فجدي الوحيد جاء على تسع بنات، ثلاث منهن سلمت حياتهن وتزوجن وأنجبن وتباعدت مساكنهنّ، بقي جدي في دار أبيه وتزوج ثلاث مرّات ولم ينجب غير أبي من زوجته الأولى، جدتي التي توفيت أثناء ولادته وتركته لترعاه الزوجة الثانية، وبعد فترة وجيزة من وفاتها وقبل أن تتم الأربعين حيث كان صراخ الولد التغطية المناسبة ليدفع أبو جدي ولدَه لزواج مبكر، لكن الزوجة الثانية كانت عاقراً لربما ورثتُ ذلك عنها وبقيتْ في بيت جدي حتّى عندما تزوج الثالثة التي لم ترض أن تكون عاقراً، إذ طلقها جدي بعد ثلاث سنوات من زواجهما؛ لتتزوج رجلاً توفيت زوجته وعنده أولاد، فأنجبت منه صبياناً وبناتاً، وقتها عرف جدي أن العطب منه، لكن كيف ذلك؟ وقد أنجب أبي، أحياناً في شكّ بوليسي أتمنّى أن أحصل على شيء من رفات جدي، ولكن كما قال عندما قرأ في عين زوجته الثانية شكاً في لحظة انتقام على زواجه الثالث وبعد طلاق زوجته الثالثة: يرزق من يشاء، وصمت.

هذا الشّك مات في وقته وأبي كان باراً بأبيه وراعياً لزوجته الثانية كأمّه، لكنّه خرج عن تقاليد العائلة بشكل كامل حتى في زواجه، فقد تزوج مسيحية تعرّف إليها في الجامعة، لكن بعد أن أنجبت ذكرين عادت الأمور لمجاريها، وكان جدي قد سمى أخوتي الذكور باسم أبيه وجده أما اسمي، فكان لأمي التي سمّتني على اسم أخت لها متوفاة.

ماتت أمي بعد طلاقي من قريب لنا من جهة أخت الجدّ، الأكبر من جدي عمراً، والتي بقيت الصلات بيننا معقولة وخاصة بعد فعلة أبي التي أبعدت عنه القرابات الرحمية.

لأكُنْ صريحة، لم يكن حباً بالمعنى الدقيق للحب، كان لوناً أحمر فقط. أربع سنوات مرّت ولم أنجب، وثبُت طبياً عقمي. وهرباً من ضغط أهله والزوجة الثانية التي رشحتها له أمّه، كان الطلاق الذي أعادني إلى بيت أمي، فكان الضربة القاضية بفقدانها الأمل، لربما يعيش الأهل في عيون أولادهم، إنّها المواجهة الأخيرة مع سر الموت بالهرب منه عبر التقمّص بالأبناء.

****

لم يكن أحدٌ في وزارة التربية يمانع انتقالاً إلى المنطقة الساحلية، وخاصة بعد أن وجدت فتاة ترغب بالانتقال إلى العاصمة. وهكذا بعتُ كل شيء، حتى المكتبة، ولم أستعمل من الماضي إلّا رقم هاتف صديق أبي الذي أمّن لي بيتاً صغيراً فوق بيته في تلك المدينة الصغيرة مع إطلالة بحرية على شاطئ وكورنيش يتبعه أزرق استوطن لوحاتي.

٢- الفصل اللاحق: الريـــــــشة

أبٌ على وشك التقاعد، وأمٌ جلّ اهتمامها هو العناية ببيتها، وأطفالٌ يتدفقون كالماء في أيام العطل؛ هذه الحياة، حياتهم، كانت توحي لي بالأمان والراحة. أصبحتُ تلك البنت التي أتتْ على كبر، فهم يدلّلونني ويحبونني بطريقة جعلتني أستعيد حياة الأسرة من جديد.

كان يختبئ جزء كبير من حياة أبي في صدر هذا الرجل، لقد سرده لي على وقع المطر الشتوي في الخارج، وصخب الموج الذي يحتجّ على تهييج ذكرى الموتى، ولكنّي اعتبرت استكمال تلك الحياة التي طوتها أمي بعيداً عنّي ضرورة وجودية في اعتقادي، حيث لم تنفع مكتبة أبي إلا بإعطائي صورة تكاد تكون فكرية عن فيلسوف أو ما شابه، كنت أرى تلك الأسرار التي سردها لي، طريقة في معرفة أبوة جديدة أكثر قرباً وحميمية، حيث لم تعد تلك الغصّة المرّة التي ترافق جوابي عن حياة أبي علقماً كالحنظل، بل أصبحت بمرارة القهوة.

****

كثيراً ما جنحتْ أفكارنا بعيداً عن الشرفة التي كانت تجمعنا؛ مع أخيه وزوجة أخيه، وعندما كنت أستأذن كي أصعد إلى بيتي؛ كنت أجرّ قدمي من التعب لشدة ما مشينا.

"أشعر أنّ لي القدرة على الطواف حول الكرة الأرضية مئات المرات. إنّه الحلّ الوحيد لأهدم هذه الزنزانة اللعينة، ولكنّي لم أفعل، فالزوجة والأولاد الذين رسمتهم بقلم الرصاص على جدرانها، يلزمونني بالبقاء. وعندما أخرجوني بحكم أشدَّ قسوة من الأول، طلقتها لتتزوج النزيل الثاني ليعتني بالأولاد. السجين الذي خلفني في الزنزانة، خرج بعدي بستة أشهر، وعندما سألته عن زوجتي وأولادي، قال لي: لقد صبغوا الزنازين بطلاء جديد، فهناك بعثة خارجية سوف تتأكّد من حسن التعامل الإنساني مع المساجين،

وقتها ضحكتُ من كلّ قلبي، لأنّهم دخلوا في البياض وحزنت لبقائي في الألوان".
عندما تم القبض عليه، يوزّع المناشير السرية، لم يكن ذلك بسبب تقصيره، فلقد تم خداعهم من قبل أحد الأشخاص في التنظيم الذي ينتمون إليه، وقتها دفع بنفسه أمام مطارديه من الشرطة السرية، وسمح لزميله بالهرب، الذي استطاع بعد عشرين سنة أن يكون وزير داخلية وفق التحاصصات التي - بصورة أو بأخرى-دفع أبي بعضاً من ثمنها بموته. تذكرّه بعد كل تلك المدّة، إذ إنّه، ومع تغيّر أهواء الحكومات المتعاقبة بطريقة تدعو للغرابة، لم يكن يتم إخراج المعتقلين السياسيين، وكأنه نوع من الفطنة التي تصيب من يجلس هناك في قمة الجبل، فمن يعارض سيظل يعارض.
وهكذا أصبح البيان "رقم واحد" شيئاً طبيعياً يمرّ لوقته، وينتهي، حتى إن الموظفين الصغار لم يعد يعنيهم من يرأسهم، فالقصة قصة تاريخ يجب أن يصفّي نفسه من أحقاده.
خرج من السجن وعاد إلى القرية. البيت كان مغلقاً. مات والداه وهو في السجن.
بعد أسبوع من قدومه، وقفتْ أمام البيت سيارة سوداء تلمع تحت شمس الصيف، ترجّل منها رجل وحيد، وطرق عليه الباب، وغارا في الظلمة، لساعة مضتْ لم يعرف أحد من سكان القرية ما حدث، فهم لم يتعوّدوا على مرور مثل هذه السيارات الفخمة في طرقات القرية، لكنّ الرجل الغامض منحه وظيفة حارسٍ للغابة التي تتسلق الجبل خلف القرية.

****

كنت قد دخلت الثلاثين، أقضي معظم وقتي ما بين المدرسة التي أدرّس فيها ومرسمي، ومن ثم الشاطئ الذي بدأتُ أعرفه حجراً حجراً، مبتعدة عن ساعات الرجال، محتفظة بزمني لنفسي، أقضي مع العائلة الجديدة مقدمة السهرة ثم أنطوي في مرسمي. لم أهتم بتطوير صداقات، كنت مهتمة بالرسم فقط.
عدت إلى العاصمة بعد غياب سنتين، لأشارك في معرض مشترك مع مجموعة من الفنانين الذين عرفتهم سابقاً، لم أستحمل وجودي هناك لأكثر من يومين، رجعت بعدها بعد أن ائتمنت صديقة لي على اللوحات، وسمحتُ لها بالتصرف بالسعر في حال تم شراء إحدى اللوحات. أعيدت جميع اللوحات، حيث لم تُبع واحدة منها.

****

الشعور الذي راودني تجاهه، يشبه رائحة مكتبة أبي عندما كنت أدخلها وفي نيّتي اختيار كتاب جديد بعد أن أكون قد انتهيتُ من قراءة آخر. إنّه إحساس جميل وممتع، على الرغم من الخوف الذي راودني مراراً بأنّ سرّي قد يفتضح، أمّا هو، فلم يغّير من مواعيد قدومه من القرية كلّ ثلاثة أسابيع، يأتي قبيل العصر ويغادر في الفجر.

أصبحت أستيقظ مبكّراً، أعدّ فنجان القهوة مترقّبة مغادرته، أضع الفنجان على حرف شباك غرفة النوم، في حين كان هو يهبط الدرج، يتوقّف قليلاً قبل الانعطافة التي ستخفيه عن ناظري، فأظنّ أنّه سينظر إلى الوراء ومن ثم إلى أعلى، لكنّه يدلف في المنحنى ويختفي.
عندما علّق على لوحاتي، قائلاً: "إنّي أرسم لوقت مضى"، كان قد مضى على معرفتي به، أحد عشر شهراً.
تكاثرتْ مواعيد قدومه كفتات خبزي الذي أرميه إلى عصافير الشارع، نقضي جلّ الوقت في المرسم، نستمع للموسيقى، ونتكلّم عن كتب تشاركنا مطالعتها في زمنين مختلفين، فنتبادل الآراء عن انطباعات مرّت في الذاكرة، تمنيته أن يكون أحد مؤلفي هذه الكتب؛ لأخون الآخرين معه، فقال لي فيما بعد: "كنت جباناً، كم رغبت أن أقبلك لحظتها وأهمس، فأنا لم أهمس منذ زمن، ولكن السجن يجعلكِ تعتقدين أن الصمت أفضل وسيلة للتعبير ولا تنتبهين إلى مرور الوقت فيه. عشرون سنة مضت، أشعر بها كحياة أخرى، فلم أنظر إلى ساعتي فيها".
حاولت مقاربة السياسة بأحاديث عابرة ولكنّه دوما كان يقاطعني:"السياسة ليست وسيلة ناجحة للقيام بشيء، إنها فقط للتغيير، وهذا التغيير كقفزة في المجهول لا تعرفين أين ستسقط قدماكِ؛ أرجوكِ لا تعيدي فتح هذا الموضوع"، ثم يشرع بالتكلّم عن حال الغابة المتدهورة فوق القرية، فأردّ: ولكنّها السياسة من جديد!
يهمهم: "مازلنا نتكلّم عن الخطيئة الأولى، وكأنّها حدثتْ البارحة، ما الذي ينفع في ذلك، لاشيء! الخطيئة سبب وجود، أمّا الذي يهمني الآن، هو: كيف أعيش هذا الوجود بعيداً عن ظلالها. إنّها كالسلاسل الحديدية تمنع السجين من الهرب. لقد نقعت قدمي في الماء طويلاً حتى أكل سلاسلها الصدأ، فاهترأت، أنا هارب إلى حياتي، ألا يكفي هذا لأغلق هذا الماضي.
الذنب الوحيد الذي أشعر أني اقترفته كان تجاه الطبيعة. إنّها مسالمة إلى حدٍّ مثير للشفقة والحزن، وجديرة بأن تنذر الحياة لأجلها، سأعمل وحدي هناك على سفح الجبل، سأعيد للغابة عمقها وأسرارها وسحرها، لعله في يوم ما يخرج بشري أكثر إنسانية بلا خطيئة تتبعه كظله، فالغابة يكفيها أن أمشي في طرقاتها كحيوان يحترم قوانين الفصول، وهي سوف تعطيني مستقبلاً أخضر، ولكن إن أهملتها سأنتهي بموتها. نحن وحيدان".
- وحيدان؟! علّقت ممتعضة كأنّ أنبوبة للون فاجأني انتهاؤها.

****

لربما، أصبح تعلقنا بعضنا ببعض واضحاً للجميع، ما عدانا، كنّا نرى الأمر على أنه نوع من الإجبار، لم يعد يتفق وحياة الحرية التي نعيشها.
كلّمني بموضوع الانتقال للسكن معه دون زواج، لأنّ الزواج يراد به المستقبل: "أمّا أنا فأريدكِ للحاضر، لا أريد أوراقاً من صناعة مدنية الإنسان لتجمعنا ... هذا فيما يتعلّق بي، أمّا إن كنتِ تحتاجين لضمانة مالية سأكتب

لك الأرض ... الشيء الوحيد الذي أملكه، ليس الحبُّ ما يجمعني بكِ؛ إنما الألفة ... اختبرتُ الحب قبل السجن واكتشفتُ أنه يمت للسياسة بصلة، بل إنها مثله عمياء."
أقنعني كلامه، فمتى كانت الدساتير تحمي الشعوب التي تتبناها، فالدساتير كانت دائماً مطيّة للسلطة التنفيذية.
الكلمة الوحيدة التي قلتها حينها: ولكن...!
قال لي بعدها، دون أن يمهلني لأتم جملتي: "أمام الناس لكِ أن تكذبي كما تشائين، فهم دوماً سيسألون ثم يعتادون، فالسؤال سهل، لكن البحث عن الإجابة يحتاج مجهوداً وزمناً ونادراً ما يشغلهم ذلك، مادام لا يمسهم مباشرة".
اعترفت له، أنّ سبب انتقالي إلى بيته، لم يكن بحكم العقل، ولكنّ الحب يبرّر.
حينها عرض عليّ أن نسجل زواجنا، ضحكتُ من قلبي وقبّلته كما لم أقبّله من قبل، متذكرة كل قُبل الهواء.
في اليوم الثالث لقدومي للسكن معه، ذهبنا إلى الغابة، تسلّقنا الهضبة المنحدرة إلى أنْ وصلنا أمام كهف ذي مدخل صغير، دلف قبْلي وتبعته بخوف، التفتَ وبابتسامة شدّ على يدي قليلاً، بعدها انفرج الضيق الذي دخلناه عن قاعة من الحجر المكتسي بالصواعد والنوازل مع فتحة سماوية تضيء المكان، وبحيرة صغيرة في مواجهة المدخل، لم أتمالك نفسي من الروعة وقلت: إنّه بيتنا، فضحك وضمّني وتكلّم: "إنّها مياه صالحة للشرب، أخذت بعضاً منها إلى مديرية المياه وكانت النتيجة إيجابية".
كنّا نكتفي بالنوم قريبين من بعضنا في بداية سكني معه، إلى أن قالها: "أحتاج لبعض الوقت، فالمرأة الوحيدة التي عرفتها كانت زوجتي في السجن، امرأة من رسم".
ضممته وقلت له: عندما يحين موعد قلم الرصاص، فمبراتي جاهزة.
- "أتسبحين؟"
خلع ثيابه بسرعة ودخل الماء، ظهره كلوح مسماري نتيجة التعذيب في السجن، لم ينظر إليّ، بل حدّق إلى الفوهة التي تطل منها السماء والتي تُرى منها الشمس لمدة ساعة تقريباً في النهار، من الواحدة والربع إلى الثانية والربع، أمّا في الشتاء فلا تلحظ أبداً.
تبعته، غمرته بيدي، أطلق نفساً يعود إلى عشرين عاماً قد مضوا.
همستُ له: أريد أن أتقنّ اللغة المسمارية، ثم بدأت أقطّب حروف تلك اللغة على ظهره، أبلّها بريقي ثم ألثمها ويدي تعبث بشعيرات صدره البيضاء وتلمس بخفّة حلمة منتصبة من البرودة، لربما لشدّة الإثارة التي لم أتيقنها إلا عندما أدار وجهه وغطّ على شفتي كالطيور المهاجرة.
ينغرز وتدٌ في مثلثي، لينصب خيمته، أشعلت النار، طحنت البن، وضعته على نار هادئة كبدوية تضع الكحل.

تساقط جميع الأبطال الذين عرفتهم وكتّابهم، ما عدا مدرّسي القديم الذي ابتسم وأعاد تزرير قميصي، فتوقفت النافورة عن قذف الماء.
سحبني إلى ذراعه، ومن ثم نحو حافة البحيرة الصغيرة، ووضع بطانية تحت ظهري، واستلقينا تحت الشمس حتى غادرت الفتحة صامتين كصواعدها ونوازلها، تحرّك من قربي أخذ القهوة من الترمس وصبّ فنجانين من القهوة، أشعل لي سيجارة وله أيضاً، همس لكيلا يسمعنا الربّ: "لن يطردنا أحد من جنتنا!".
٢٠٠٧

المسافر

أجلس في مقعدي منتظراً صعود جميع الركاب إلى الباص. تجلسُ أنثى إلى جانبي ، يفسّر وجودها رائحة الدرّاق التي نضجتْ في صيف ذاكرتي.
(استدارة إلى الخلف ومن ثمّ تقول: أغادر؛ لأنّي فعلُ مغادرة!)
عبر إحساس دائري، بعيداً عمّا تعطيك الزوايا من ضبطٍ للشعور، ترتدّ نحو المركز لتصبح ذاتكَ، المحصورة بين قوسين، جاهزة لتنال منك الاستدارات؛ بدءاً من رحم إقامتكَ فيه قصيرة ، ومن ثم ثدي تستبدله بإصبع، تُضرب لأجله بعض الكفوف، مروراً بسيجارة تشربها خفيَة؛ لكي تبقى صغيراً في حضرة أبيكَ، وكرة تركض خلفها وتجري معها لتدوسكَ الكرة الأرضية بعدها.
(مؤخرتها التي رسمتُ عليها القارات ثم لملمتها بشفتي قيصر توِجَ للتوّ سيداً للعالم)
استدارة إلى الأمام، إلى الوراء، إلى اليمين، إلى اليسار. سرْ، قفْ، راوحْ مكانك، كم تملك الأنثى من حرية في تقديم الاستدارات؟ بطنٌ، فظهرٌ، في حين أنتَ تعطي استدارة واحدة نافخاً بطنها فقط وهي تنفخ فيكَ رأسكَ، قلبكَ، عضوكَ.
اهتزّ الباص، نظرتُ نحوها، مسحتها من الأعلى إلى الأسفل، رجعتُ إلى ما أنا عليه، فما الذي أنا عليه؟ الكرسي، قدمي، السرير، جسدها، أو أكثر من ذلك وكيف خطر في بالي يوماً أن أتخيلها فوقي على سبيل المثال! هل سهوتُ عن ذلكَ أم سهونا؟ لربما تقصّدنا ذلك غير آبهين بما رفضناه في متحف لاشعورنا، فلو ناقشنا ذلك قليلاً؛ لاكتشفنا أنّنا لم ننجز شيئاً، ممّا نظّرنا فيه على طاولات المقاهي. كنا متقابلين ، وجهاً لوجهٍ، جنباً لجنب، مفوضين يدينا بكل الصلاحيات، لاختصار هذا الجسد المتهالك، ليتعرّى في غرفة، عملتُ جاهداً على استئجارها.
اعترفتُ لها بحبي في اللقاء الثاني، لكنّها تأخرتْ كثيراً لتلفظ تلك الكلمة، وأشك أنها لم تقصد ما قالته يوماً، على الرغم من أنها قبلتْ جسدي فوقها مبكراً.
همستْ لي يوماً: تستطيع بكل تأكيد، تنظيف هذا الجسد، ولكن نادراً ما تستطيع التخلّص من كلمة تفوّهت بها.
لم ترض لجملها أو كلماتها إلّا التوازي، ولنقم ما شئنا من الجسور والتقاطعات. ألوانها حقيقة وليست انكساراً للضوء، فأحمر عذريتها نبيذي، وبياضها لا يتضمّن غير السواد.
تغلق سماعة الهاتف قبلي، معلّلة ذلك بكرهها لصوت "التون" المتقطّع، فلو كان قلبي يدقُ دقة مستمرة ولا يسقط عضوي باهتزازات متتالية لما كانت انهارتْ قبلي وتركتْ أنفاسي تلفح وجهها.
- ألهذا غادرتْ؟ أم لأن الكلام يبقى كلاماً!

لو أنّ الحياة جملة واحدة وكفى. أنظر إليها، والشاي قد انسكب من كأسي.

***

يرتفع صدرٌ ويهبط. يعلو الباص وينخفض بسبب تعرجات الطريق، أمّا أنا، فأرتقي ذكريات وأنحدر مع نسيان دائم، قاد نعاساً، يهمسُ بصوت قديم: لا تستطيع المقارنة بين طاولة وغرفة.

لقد عارضتني كثيراً عندما استبدلت الغرفة بأخرى، إلّا أنها نسختْ أثاث الغرفة السابقة -كملاحظة اعتراض دائمة على ما فعلت- إلّا الشباك الذي تمنّع واتجه نحو الشمال، فعلقتْ على الحائط الجنوبي لوحة لنورس اجتاح الأفق بجناحيه، لم أفهم تماماً ارتباطها بغرفة لقائنا الأولى، وهي لم تعطِ تفسيراً، ولم تسمح لي بأن أحلّ هذا الارتباط إلى خيطه الأخير، مع معرفتي أنها كانت تعاقبني بصمتها.

إلى أي درجة تتمسّك المرأة بالمكان؟ أدركتُ ذلك عندما رقصتْ عارية وسط الغرفة وكأنها تعمّدها.

باحتْ بقبولها للغرفة الجديدة، وأنا أدخن السيجارة الثالثة بعد أن ذبل عضوي، انتزعتْ سيجارة وخرجتْ، إنّها سيجارة آخر الليل عندما تفرغ مثانتها كما اعتادتْ أن تفرغ العالم من معالمه وتشكّله كجديلة لفتاة لم تأتِها عادتها الشهرية بعد. صرختْ يوماً في وجهي: إنّ هذه الدماء، صوت الجرح المستمر؛ لهذا الخلق المنكوس دوماً نحو السماء.

****

الاهتزاز المتواتر، المقطوع بعددٍ من المطبات والحفر، وضربات الفرام، دفعني لأقول: آه، أي سرير كنّا ركبناه؟ لو كان الأمر هكذا! عندما استقبلتني بأرقام ميلادها الأربعة.

تسلّل النوم إليها، أرختْ رأسها ولو قليلاً على كتفي. فتشممت رائحة الدراق الممزوجة مع إيقاع الأنفاس نفسها وهي نائمة على صدري.

يرتجّ الباص بشدة نتيجة حفرة في الطريق، فتعدّل وضعها، تشكّل صمتها من جديد، لابدّ أنها أجالتْ نظرها عليَ من زاوية عينيها، تحركتُ قليلاً، لعب الهواء بستارة عينيها.

- رياح ...! من أين؟

من ناحيتها، تداعب شعرها، فيلسع وجهي، أغلقتُ النافذة الشمالية وفتحت الجنوبية، .... هدأ شعرها.

(أنا من قطعتُ تذاكر السفر، راقبتني من بعيد، لم يكن لها ظلّ، ولربما ظلّ خفيف لكثرة الإضاءة الليلية.)

نائمة على كتفي ككتاب يضطجع على صدر صاحبه بعد أن غلبه النعاس.

أطوقها بيدي، فتتجه نحوي بوضعية جنينية، تهمس بأذني: أتشهّى السمك، أنا حامل من ذكر السمكة الحمراء في الحوض الدائري في غرفتكَ الجديدة، سأنجب حورية ولن تبيع صوتها بقدمين.

- سأبيع كل شيء من أجل ذيل سمكة.

- سأصطادكَ من عيون البحارة، سأرمي شباكي في تفاصيل الأزرق وسأضعك في الحوض الدائري في غرفتنا.
- سأتزوجكِ على جرف شطّ عال ونقفز إلى البحر.
أزيحُ ستارة وجهها، أصمتُ شفتيها، أقيسُ مسافة عنقها، واستدارة نهديها، فيتضخمان كبالوني عيد ميلادها، ويرتفعان في فراغ الباص، تعلوهما صدارتها، أتسلق، أجلس على قمة حلمة نهدها الأيمن، وأرقب العالم من فوق، يمتدّ سهل بطنها نحو الأسفل، أتدحرج كقلم حمرة من حقيبتها، راسماً خطاً أحمر على طول المنحدر، أعود صغيراً، طفلاً في الرابعة لربما أصغر، لم يعد لي زمن، ليس من جسد، ولكن لي كلّ الحق أن أتوغل قدماً، بين الحين والحين أنظر إلى ...؛ لأرى عينيها تبرقان بحنان وصمت يهمس: امضِ.

****

سائلٌ أحمرٌ خضَب يديَ، فضضتُ عذريتها بجسدي كاملاً، إنّه ولوج كامل.
ينوس الضوء من خلفي، لتضمّني عتمة دافئة، أتلمس الدرب عبر دقات قلبها المتسارعة، ليسود بعدها صمت طويل.
الريح باردة، وصوت سيارة إسعاف يرسم شفاه الصمت، مازالت بقربي نائمة، مازلتُ في داخلها غافياً، أقف قريباً من قبرها، تهتزّ أنصال العشب الصغير بتواتر اهتزاز باص بضوء أزرق داخلي.
التذكرتان تلعب بهما الريح، تفلتُ أحدهما، فتطير، لا أحرك ساكناً، أتابع عمال الشحن وهم يرحلون الحمولة عن الرصيف المقابل.
التفتُ إلى فتاة الدرّاق بجانبي، الثلج ينهمر خارجاً، أمسح الزجاج و...

*****

فيروز:(أنا عندي حنين وما بعرف لمين)
لماذا تلك المواربة؟ لكلٍ منّا حنينه ويعرف لمن؟ هذا الحنين الذي يركض خلفكَ، أمامكَ، ويتلطّى بين قدميكَ ككلب وفيّ.
هربتُ مراراً، وتكراراً، لكن في النهاية، أسلمتُ نفسي إلى سجاني، وكلّ يوم مشمس أجمع غسيله النظيف جداً وأغسله بالملح وعلى ضوء الشباك وفيروز (يومية بيخطفني من بين السهرانين) أتلمّس آثارها، بصمة إبهامها الأيسر لقلبي، ورسم كفيها على ظهري لضمة طالتْ كنهر، فيما سبابتها تقاطع شفتي من أجل صمت في حضرة الحب وقبضة كاملة انتزعت عضوي ثم وضعته في مزهرية مع وردة وحيدة يابسة في ضوء الشباك.

***

رائحة الدراق تفوح كرائحة الكحول في المشفى.

***

الشريط الأحمر لهديتي، المعقود كأذني أرنب يعلو ويهبط مع صفارة متقطعة لشرطي السير، فكّتْه كجديلتها، لتلقيه في مساحة أنبوبة الإنعاش.
على السطح المقابل تُوجد امرأة منشورة على حبل، بينما انسحبتْ من الرؤيا، كما اعتادتْ أن أنزع صدارتها، فتخرج منها كسوار من ساعد.
تحتاج الذكريات إلى دفتر ينبض جلده بالمفارق، وطاولات المقاهي، والانتظارات، والقبلات اللاهثة لراكضي المسافات الطويلة.
صفارة الشرطي تأخذ منحى مستمراً كما الطريق إلى غرفتي آخر الزقاق.
فتاة الدراق قربي، تضع سماعة "الوكمان" على أذنيها وكأني بصوت فيروز (بصير يوديني لبعيد يوديني وما بعرف لمين وما بعرف لمين)
الممرضة تضع السماعة على صدرها تستمع لنبض عميق ...
تقرع لمرة واحدة بعد أن تكون قد اجتازت شارعاً ماطراً، لتمضي إليّ.
دائرة الماء تتسع حول قدميها كهالة القديسين!
- كم أحبكِ مبلّلة!
تطلب الممرضة منّي الخروج، يختفي انعكاسي من زجاج الباص، فيغدو صوت فيروز بعيداً، يخرج معها من الباب الموارب بعد أن تلصق قبلة على جبيني وتكتب عنواناً آخر.

***

لم أكن قريباً لأحد كأميّ، وأمي تقول: عندما ينضج الدرّاق تمتلئ السماء بالبثور وتكحّل-بدلاً من عينيها- شاربي وتتمتم: الكحل خير من العمى.
العمى هو ظهور معالم الرجولة وامتلاك حق الابتعاد، أمّا جدتي فتقول: الشبّ بلا سيجارة مثل البنت بلا إسواره.
ابتعدتُ وحلقتُ شاربي ودخنتُ كثيراً، وبدلاً من الأسوارة، أهديتها خلخالاً، استرخى كالظهيرة فوق كاحلها الأيمن.
وضعتُ الوردة اليابسة قرب قبرها على ضوء السماء.
- أحبكَ أن تنتظرني، هكذا أشعر بالأمان.
على الرغم من أنّها كانت تحتفظ بدفتر مذكراتها في الغرفة، وكانت تكتب عندما أغرق في النوم، لكنني لمْ أطلع عليه حتى في غيابها وكأنّي أريد أن أترك عذرية ما، لم أفضها.
تكتب بقلم الرصاص ذي الممحاة الحمراء في رأسه.
(الأقلام تكتب بأقدامها)
تبري قلمها بمبراة قلم الكحلة وتجمع البقية في حوض زجاج، امتلأ ربعه بعد أن أنهت الدزينة الثانية من الأقلام التي أهديتها إياها.

***

أمسح لهاث حرارتي عن الزجاج و...

***

قلم الرصاص، قلم يغفر، قلم بريء، قلم للطفولة؛ لتتعلّم ارتكاب الأخطاء بدونِ حساب. ممحاته الحمراء، حلمة الطمأنينة، الحلوى التي كنتُ آكلها خفْيةً عن أمي؛ لذلك أحذر العودة إلى طفولتي عندما تُلقمي نهدكِ لفمي.
تحوّلت إلى القلم الأزرق بعد قسمي بالكحل، وثبات خطِّي. وداعاً لطفولة مارستها في حصّة الرسم، وعلى مسوداتي، وكانت نهايتها، سلّة المهملات.
- هل كان دفتر ذكرياتكِ مسودة؟
قلم الرصاص، قلمٌ يملكُ غفرانَه بممحاته.
قلم الحبر يحتاج إلى كفارة تدور بين الشّطب واستخدام الماحي الأبيض وتمزيق الصفحة و"جعلكتها" ورميها في سلّة المهملات.
القلم الأزرق يؤثّر في المكان، قلم ينتمي للبحر والسماء.
إنّه قلم الرُّشد حيث يبدأ ميزانك بالعمل وتبدأ كفتاه بالغمز.
قلم الرصاص قلم ينتمي للرّمل. قلم الرصاص آلة للزمن للعودة إلى الماضي.
لو تُكتب حياتي بقلم الرصاص، فأمحو الأثر، وأعيد الكتابة فوقه. سأمحو يوم ألصقتِ طابعاً على جبيني وأرسلتني لعنوان آخر.

*****

- الحاضر ظلال ذكريات.

في محاولة لإيجاد نوع من العلاقة الودّية بيني وبين القلم الأزرق، بدأت أشْكله في جيب القميص ولأنّه قلمُ، سكين، كنت أستحضر الضمادات، الماسح الأبيض، لأخيط جروحه ولكنّها كندب الجروح تختفي من وجهك عندما يعتادها الآخرون.
- لماذا لمْ أحبكِ في زمن قلم الرصاص؟
الورقة البيضاء، لحظة في الزمان. المكان كقطرة مطر تشظّت على كفّ تبتهل، أمّا جسدكِ المنداح في الأبعاد، فكان الورقة الدائمة ولأن قلم الرصاص لطفولة لم التقِ بك فيها، فلم يخطّ على جسدك، كان لزاماً عليّ أن أكتب كما في حياتي بالقلم الأزرق، فهو الورقة الدائمة.
خططت على بطنكِ (أحبكِ) بعد أن زرعتُ شجرة نخيل في سرتك.
أرتجلُ الشعر؟ وأخطه على صدركِ، بطنك، فخذيك، ساقيك، أصابعك، حلمة نهديكِ أكتب باستعجال، أتكلّم بصوت عالٍ، فيما أنت تقهقهين ضاحكة.
- أنا المنبر الوحيد الذي تلقي عنه أشعاركَ. ثم تمتصين صوتي بقبلة تجعل خطي يعلو ويهبط.
- جسدكِ لا يحتاج للماسح الأبيض؛ ليتخلص من جنابة قلمي الأزرق.

*****

أوشكتُ على الوصول، أخرجتُ دفتر مذكراتكِ من حقيبتي، تأملته مع شظايا حوض الزجاج المنكسر وبقية أقلام الرصاص المتناثرة كالياسمين في الزقاق المؤدي إلى الغرفة.
- إنّه لكِ كاملاً.

استدرتُ إلى فتاة الدراق وبعينين مقنعتين كالموت: هذا لكِ
أنزل من الباص وصوت فيروز: (ما بعرف لمين ما بعرف لمين).

****

طفلنا الذي أنجبناه في غفلة من رحمِكِ. لماذا لمْ تنازعيني على مستقبله أم أنك اكتفيت بالماضي منه، لكي تنجزي حاضر الهروب، غاسلة جسدكِ بالصمت وروحكِ ببرزخ الشعر.
هل خفتِ على جسدكِ الممشوق كحورة أن يصبح كدالية تخاف إثم عنبها، أو أن يمتلئ بطنك بالوقت، أو أن يلدغ وحام الدقائق والشهوة إلى عقرب الثواني خطواتكِ المنسابة كشعرك الذي انتهيتِ من تسريحه، فيثبّته بيده، فلا تلعب به رياح الرحيل، أم الخوف على ثدييك من أن ينتفخا باللقاء، فلا تناسبهما بلوزتك الضيقة كبسفور الانتظار بين قارتين.
على الرغم من كل الأسئلة التي من المفترض أن تظل بلا أجوبة، ومع طمأنينة الشمع المشتعل بعيداً عن تيار الهواء، أطفأتِ الغرفة وراءكِ وأغلقتِ الباب طويلاً، مختصرة المكان إلى خطّ يمتد إلى الأمام، لأقاطعه بأربع طقات للقفل وأسحب المفتاح للمرة الأخيرة وأنتِ الآن لستِ سمائي، فأستظل بأرضي!

******

ليكن معلوماً لكِ، هو طفل كالفأر، يعترف أنّ الحياة فتات، فلا ترين من حضوره إلا ذيل طائرة الورق بعد أن انقطع خيطها في غابة الغيم، حيث تسكن بياض الثلج وألوانها السبعة. إنّه لص يشبه الموعد المزعوم، كثيراً ما يسرق انتباهي وهو يتعمّق على الحائط ليحاكي ورقة أسقطها في سلة المهملات.

****

لم أطلق عليه اسماً! فأنتِ لن تناديه، ومَنْ غيرُ الأم جدير بأن تنادي طفلها، ولكن قليلاً ما تلفظ الأم اسم ابنها، فهي بذلك تجعل له قرينة من الجان تحميه من كيد النساء.
والآن لن تكون لطفلنا قرينة من الجان، ولا ثدي أنثى سيقبله ويُسمِع نسبَه إلى نهد ما، مادام نهدُكِ قد أنكره وتركه نهباً للحليب الصناعي.
عندما عدتُ إلى البيت طلبتُ من أميّ، أن تناديني باسمي وبشكل دائم، ابتسمتْ أمي: الولد يريد عروساً! أمي تعدّ لي زوادة كاملة للحياة.

*****

هل تقبل أن تنزل على ضرّة؟ أترضعه؟ وتغير له حفاضه، وتصحو ليلاً لأجله، لربما! لن تعدل بينه وبين ابنها وسيصدمها رجل يتأبط طفلاً يناديه: ماما!
كنتُ واثقاً من موافقتكِ -تريدين هروباً كاملاً- لتكنْ أنثى أخرى، ورأيتِ ذلك حسناً ومن وقتها صارتْ قرابيني بلا أسماء.

منذ سلّمتُ العجوز قاطع التذاكر مفتاح الغرفة -حيث كنّا نتهالك من يلفظ أنفاسه أولاً- قال: للمحطات أخطاؤها، فودّعته.
رفضتُ شراء تذاكر السفر، أسافر بمصادفة التقاء الأماكن، كنتُ خائفاً من الحقائب الجديدة.
إنّه يكبر ويرسم خطوطاً كثيرة على جدران غرفتي، أستيقظ في الصباح لأجد شاربي قد نما، فهو يحب تزيينه بالكحل - ماما تضع الكحل- نلعب لعبة الغميضة، أخسر بشكل مريع، فهو يعرف غرفتي ويناديها، فتجيبه زوايا جديدة للاختباء.
سأل عنّكِ مراتٍ عديدة في غيابكِ.
- "أمكَ تأتي مع المطر" ومن وقتها أصبح مبتلاً.
كنتُ أشعر به عندما يتكاثف الضباب من حولي، فأستدير نحوه وأحضنه، فأعبّ من دخان سيجارتنا الأخيرة بعد أن تلصقي فمي بفمك، وتزفري نفساً طويلاً.

*****

نزعتُ الأرقام من حياتي، كلّ ما أعيشه يومين؛ الأول هو البارحة حيث غادرتِ، الآخر اليوم الذي سوف يمتدّ.
كنتُ أعمر منكِ بسنوات ولكن سوف أغادر بعدكِ بيوم واحد.
أمّي تقول: إنّي ممسوس، على الرغم من شهادتها، بأنّي أعقل وأهدأ الرجال في عائلتها!
لم أمسس الحجابات التي علقتْ بقمصاني الداخلية ولم أعترض على التبخيرات التي تدور حول رأسي كل صباح مع أدعية حفظتها، عدا عن ذلك، فرائحة البخور كحضور تأمّلك في حوض الزجاج بعد أن تضعي نثرة من علكة البخور على مقدمة السيجارة وتشعليها.
يجب أن نشعل البخور لروح جميع الاستعادات. أنظف في آخر الليل مقبرة الدخان في سلة المهملات بعد أن تغادري وترمي وراءكِ وردة ذابلة. في الصباح أغلق الباب ألتقط الوردة وأهديها إلى سياج، قطفتُ لكِ الورد منه مراراً.
طفلنا يسأل عن معنى كلمة ليل. إنّه يريد أجوبة كثيرة وأنا لا أملك ردّاً إلّا أنّكِ رحلتِ.

******

في كتاب ما، قرأتُ سطراً؛ أنّه يلزم لتحضير روح شخص ما، أنْ تجيد رسمه. كان السطر قد توسط صفحة خالية. لو يكون الرسم بالأذن؛ لكان أفضل، فيدي لا تجيد غير الامتداد إليك.
لم أستخدم نظري إلّا للتحديق بعدما تخلّلت صورتكِ الأشياء.
خطوطي ضعيفة ... "لكنّك تملك لوناً أكثر من كل من عرفتهم" تقول من تعلمني الرسم. ماذا تفيد هذه المفاضلة وأنا أخفق بتزجيج حاجبك الأيمن، فيما يصرّ ابننا على أن أرسم رمشك، فهو يريد أن يضع الكحل عليه. أخيراً

توقّف عن السؤال عن الليل، فهو موجود على رموشك كما الأفق موجود على الجبال شرقاً وغرباً، فيغمره البحر حتى سرّته التي قُطع حبلها عندما أغلقتِ الباب وأدرتِ المفتاح أربع دورات ولففتِ سرّته بالشال الذي أُدفِّئ رأسي به في مشوار آخر الليل، خفتِ عليّ من البرد، فأحطتِ رقبتكِ بالشال.
قبعة الصوف تغمر رأسه تماماً؛ -هكذا لن تبرد- وشالكِ ستلعب به الريح وأنا أخطو خارج الزقاق المؤدي إلى غرفتنا.
ما زال وجهكِ عصياً على الرسم، فمدرسة الرسم على ما يبدو أنّها لا تعارض وجودي وتلصصي على رجلها النافر من اللوحة وهي تحلق له ذقنه، فيما تبلل الفرشاة بالماء، فيترك بعضاً من ريقه على حلمتها، تبعده، فيمتدّ خيط من الرضاب كجسر ما بين شفته ونهدها.
أسنانه بدأت بالظهور، فيرطب وجهي بلعابه؛ ومن ثم يمسحه بكلمة بابا.
لا أجيد الرسم ولا رغبة لي بزقاق آخر، ولكن حصلت على صداقة مدرّسة الرسم.
مع اللون بقيتُ التلميذ ومع الامتداد كنتُ الأستاذ. معكِ كانت الكلمة طاولتنا، نحتسي قهوتنا ونكتب في مساحات البياض في الفنجان، ولكن اللون يستر ويخفي ما وراءه، في حين الكلمة كالدانتيلا تشي دوماً بغريزة أساسية للاقتحام، لربما يصحّ القلم للولوج والريشة للعادة السرية، لذلك ظلتْ العلاقة مع مدرّسة الرسم تنوس بين اللون الأزرق وعمقه والرجل المُلقف ثدييها في اللوحة، على الرغم من التواطؤ الذي لا نعترف به. نرقص أنا والمدرّسة رقصة الثور ومصارعه.

*****

لا فائدة من الرسم لاستحضار من هو موجود، فعادة ترسم الصور للموتى ليلحدوا مرتين.
- "ستمطر - صاح ابننا- ماما قادمة، امتلأت سلة المهملات بالورق".
أعود لأجده ملطخاً بالألوان، فيما ظلّه قد تخلّلته فجوات من نور كظلّ عريشة، أظنّه تعلّق بمدرّسة الرسم، فقد تكاثرت لوحاتها.
إنّه يعرف الألوان ويردّد اسم مدرّسة الرسم، ولكنّه يسميني "ميمتي". لقد بكى في المرة الأولى التي سمع أمي تنادي عليّ باسمي بعد طلبي منها ذلك.
- "لم أفهمْ!" ولكن كنت أرى في عينيه زقاقاً آخر.
على طاولة ما، كانت مدرّسة الرسم تسرد اللون الأزرق، ومن ثم بدأ الرمل يتسرب من عيني اليسرى إلى عيني اليمنى.
تقدّم نحوي وبيده زورق من الورق كنت قد رميته في سلة المهملات، وأشار إلى حوض السمك، حيث عينها قد عتّقتْ عيني بلون يشبه طحلباً بحرياً، صبغت يديها به وأخذتْ ترسم دوائر خمساً حول سرّتها. مصّتْ إبهامي، كما يفعل بإبهامه، ثم رسمتْ قطراً يصل بين الدوائر الخمس وانسحبت من حلقة الرقص.

كنت أعتقد أن التساوي بعدد أحرف الأسماء لا بدّ أن يؤكّد قدراً ما، وهذا ما فعلناه، وجها لوجه.
- ليطلق كلّ منّا كلمته الحاسمة.
قلتها لكِ مسمياً مشاعري، مردياً قلبكِ الذي تسرب منه الضغط، فبدأ يخفق كالستارة بوجه النافذة المفتوحة.
الرياح المتقلّبة لا تخدم ربان السفينة، إذاً، لتبق ستارتكِ هادئة، هذا ما قلتُه لمدرّسة الرسم.
رجعتُ، تعلّق برقبتي:"ميمتي"، وأشار لورقة على الطاولة، وهمس: "هذا اسمي من ثلاثة أحرف".
- "من ناداك؟".
- "اللون!".

****

يمصّ سبابته عوضاً عن إبهامه. تلك السبابة التي مسحتْ الكلام عن شفتيكِ لقبلة نظيفة، وتأكدتْ من انتفاخ حلمتكِ بزهرة الثلج في استراحة الشتاء عندما كانت الشمس تميل كراقصة أخذها إيقاعٌ جنوبيٌ.
ينام فارداً جسده، فتبدو يده كغليون بحار يتعاطى رياح الملح في قهوته، مراقباً نورساً كرقاص ساعة، في حين أنام بوضع جنيني على طاولتي، أمصّ قلم الحبر الناشف، وكثيراً ما أكسر عقبه، وأترك البقية كقطعة تبغ سوداء، لا ألبث أن أبصقها في سلة المهملات.
يسألني عمّ أكتب عندما يستيقظ ليشرب أو ليقضي حاجته، فأجيب وأنا خجلٌ من الصفحة البيضاء: "أكتبُ قصة؟"
يرد بفتور: "كالقصص التي تحكيها لي قبل النوم".
- "لا، إنّها قصص للكبار".
- "متى يقرؤونها؟ هل تكتب قصصاً لأمي أيضا؟".
.....
أحمله إلى السرير وأشعل سيجارة، أفتح النافذة قليلاً، المطر في الخارج يسقط بهدوء، كنتِ تحبين هذا المطر.
إنّه كاللص، لا تشعرين به إلّا وقد وصل إلى جيب السترة الداخلي ولكنكِ لا تحتاطين بمظلّة أمانٍ منه، تحبين التناسب بين ما مشيناه تحت أنامله ومقدار البلل الذي أكسبكِ إياه، هكذا كنت تحددين عدد كؤوس النبيذ وكيف ستلوذين بصدري باحثة عن دفء. للحقيقة كنت تائهاً لولاه، إذ من غير طريقته الربيعية في القفز في برك الماء التي تصادفنا عبر الطريق الذي يزنّر القرية شرقاً كان الدم في عروقي سيتجمد كقرون الجليد التي كانت تتدلّى من شباك الغرفة.

الآن أفهم هذا العجوز: دع العصافير تشرب –معلقاً-على كلامي: إن الخزان يسرّب الماء.
تعدّين القهوة وتنتظرين شمساً، ليبدأ عداد الماء بالتساقط، من أين لك هذا الجَلد؟ لتستيقظي مبكراً، في حين كنت أستعير مطرح نومكِ على الجانب الأيمن للسرير وأغطّ طويلاً بعدكِ في النوم، لاستيقظ على همسك: أنا ذاهبة.
حدث مرةً بعد أن أيقظني سعالكِ أنْ همستِ لي: المسافرون يستيقظون مبكراً. هذا ما خُيّل لي أني سمعتُه: لأن فيروز كانت تتصل بجدتها في كحلون.
يقفز سعيداً بانتشار قطرات الماء.
- "بابا هل رأيت قوس قزح؟"
.....
يمتلك قوس قزح قدرة على تحقيق الأمنيات لمن يعبرمن تحته، ابتسمتِ:
سأثبتُ هنا، اجرِ واعبرْ من تحته وعندما تمرّ، سأصرخ لكَ. لكن ضجيج المدينة كان يخفي صوتكِ، فأعود خائباً.
سينجح الأمر في قريتي، ولكنّني هنا الآن، أمّا أنت فلا! فأتذكر بديهيتكِ التي نقضتْ الفرض، مادامت الأمنية مرتبطة بنا، فيلزم مرورنا سوية ولكن من سينادي علينا؟! أنظر إليه وقد سبقني بمقدار ظلي، إنّه هنا الآن، ولكن أين أنتِ؟

*****

- كيف يموت الإنسان؟
رجفتُ كباص لم تنفعه مكابحه، فارتميتُ على الكرسي. لماذا لم انتبه إلى هذا السؤال الذي يختبئ في عينيه؟
جرحتُ وجهي بشفرة الحلاقة، سال الدم ورديا، كانتْ عيناك متسعتين وصامتتين فيما ترمقينني كتمثال المرأة التي تحمل خابية الماء وتمضي في الصخر.
- إنّها تشتهيكَ.
لمْ نكن نرمِي الورود عندما تذبل، كنت تحملينها وهناك حيث اعتادكِ السياج، تضعينها بخفّة بعد أن تتأكّدي من أن صاحب الدار لن ينتبه.
- إنّها تنمو بطريقة عشوائية لا أحد يهتم بها، المرأة العجوز تسكن وحدها، دعكِ من هذا!
- من قال لكَ ذلك، هكذا نَشعر أن المرأة العجوز مازالت قادرة على التلصص، فنعطيها حياة إلى أن يأتي يومٌ نحمل فيه هذا الورد إلى قبرها.
عيناه معلقة بي كشصّ صنارة اصطادت سمكة حمراء، أنظر إلى حوض السمك الفارغ، أتمتم كيف يموت الإنسان؟ كما تغلق كتاباً!

*****

- "تعال..."

أمدُّ يدي إلى حرف الشباك، أتناول أصيصاً وأقول له: "احفرْ قليلاً هنا".
أخرج من الغرفة، أسأل أمي عن بعض حبات الحنطة، تتحوّل أمي إلى عصفور وتخفق عالياً.
الموت يعني بيتاً وحيداً ويداً افتقدتُ لمستها، وصدى لا يجيب غير صوتكَ.
عدتُ إلى الغرفة كان الثلم الذي حفره، جميلاً كشفتيكِ: "خذْ، ضعْ قليلاً من الحبّ هنا".
وضع أربع حبات، وأمسك التراب بسبابته وإبهامه كمن يمسك قلماً، وأهاله بهدوء المطر الذي تحبينه ثم مسّده بباطن كفه.
يدكِ تنداح -كتمويجات بحيرة أُسقِط فيها حجر- على ظهري وأنا أصغي لدقات قلبكِ التي تتلاشى كنورس يجتاح الأفق.
- "ضعْ قليلاً من الماء".

***

السياج يخضرّ، ولن تمتدّ يدكِ كي تقطف زهرة الياسمين.
فيروز تنده يا طير ... عيناه متسعتان ... لون أخضر يتوسّط الأصيص
- "ماما هناك على التلة...".
جلسنا سوية على صخرة يمتد أمامها بساط أخضر كسماء مملوءة بالنجوم وقوس قزح يمرّ من فوقنا، همس بأذني: "ماما تستيقظ".
نظرتُ إلى الشرق، كانت الشمس تنهض عن التلال، أصبحتُ أستيقظ مبكراً همستُ له:
"وأمي أيضاً".
٢٠٠٧\٦\١٠

مــوعــد

هل ينام القلم؟ ألا تملُّ الورقةُ البيضاء من إلقام ثديها لأيّ أحمق لم يجد مرضعة له في ليله اليتيم؟ ألم تنتهِ نوبة الحراسة؟ وتبادل كلمات السرّ التي تجيز العبور أو ترديك قتيلاً بجرّة قلم في حال نسيانها، كشهب ينال من شيطان القلق الذي يتلصّص على طمأنينة نهد يستفيق كياسمين المطر في مقلة الشمعة التي تراقص تيّار الهواء من فرجة الشباك، الذي تركته متعمداً، لعلّ رائحتها تتسلّل في آخر الليل عندما تبدِّل نوبة الحراسة وتعود إلى خيمتكَ التي نصبتها بعيداً أو قريباً من موعد الإجازة.

تشعل سيجارتك الأخيرة، وتطرح القلم جانباً بعد منازلة شريفة هزمته فيها بالكلمة القاضية، وأنت تنظر كيف ينمو الرماد كبرج فوق الجمرة الملتهبة.

تمجّ عقب السيجارة كأنّك تقبّل للمرّة الأولى بهدوء من مارسَ طويلاً قُبل الهواء لتترك انطباعِ الخبير على الشفة الأمّيّة، فتطيل مكوث الدخان في رئتيك ومن ثم تخرجه ببطء وتتلقفه ثانية، وكلّك علم أنك ستمج السيجارة إلى النهاية؛ حتى تلدغك الجمرة في الشفة غير المجرّبة.

لن ينام القلم ؟! وستخسر معه في معاقرة كؤوس السهر، فهو ليس بالنديم الجيد الذي يحمي ظهرك في معارك الحانات وأنت تغازل ورقة بالكتابة على ساقها قليلاً من الشعر، ولن يردّ عنك تلك الصفعة المدوية من بياضها الذي يطلع منه الفجر، ولن يسند كتفك وأنت تقنع الطريق ليبحث معكَ عن قدميك اللذين أضعتهما في رقصة الشمعة مع تيار الهواء الذي يقود نعاساً ولم تنتهِ نوبة الحراسة بعد. أخذكَ النوم ومرّت القصيدة وهي...

***

ألقمت الورقةُ البيضاء نهديها إلى يتيم آخر، ونال منكَ القلم المشرف على أبواب القوافي، وأرسلك للسجن حليق الرأس، فتدخل، وتتلمّس الشعر القصير كرؤوس الإبر، تبحث عن زاوية، تضطجع منهكاً بعد أن تقيأت الحبر الأزرق، ترسل نظرة وداع للطاولة وفناجين القهوة وعلبة السجائر الفارغة، والمنفضة التي حملت منك عشرين توأماً، وتناجي نفسك كي لا يسمعك القلم، وبالوقت نفسه تلعن ذلك الشاعر العجوز الذي نصحك وأسرّ لك شروط التحضير لقصيدة:

- (كنتُ أحمق كفاية لأصدق كلامه).

***

غداً، أيْ اليوم، لا حاجة للقصيدة! سأقول ما أريد شفاهاً.

****

عند الظهيرة على الطاولة بين فناجين القهوة وعلبة السجائر الفارغة والعشرين توأماً يمصون أصابعهم وهم نيام، كنت تغطّ في نومك وفنجان قهوتها ينقص شفة إثر شفة كقمر.

٢٠٠٧

خمريات الحرّ

المروحة الصغيرة في الزاوية، لا تكاد تقدر على جمع نسيمها، لتطفئ شمعة الحرّ، كأنّها طفل يحتاج مساعدة أمه لإطفاء شمعته الأولى، بينما أتابع على شاشة هذا الشيء شيئاً ما عن القطب الشمالي، لستُ أكيداً مما يقوله المعلّق، لربما أمر ما يخصّ الذوبان، الذوبان كقطعة زبدة على نار بطنكِ في شتاء أحسبه الآن بعيداً كفاية.

كنا كخادرتين تكركران من الضحك تحت بطانية من جلد النمر.

- هل ستذبح لي قطاً أم نمراً في ليلة العرس؟

رفعتُ رأسي من تحت البطانية، لم أعد أذكر ما كنتُ أخيط! أ شفتاكِ بقبلة تجميلية لا تحتاج للنقاهة بعدها؛ أم ْهذا الثلم الذي خطه عضوي برمل ساقيك معانداً موج العسل المتدفق من محوه؟

هل أجبتُ على تساؤلكِ؛ لا أعتقد؟ كأس الكولا البارد جعلني أتجشأ.

كم كنتِ منتبهة لـــ "الاتكيت" فلم يخرج منكِ على الرغم مما اعتبرته مضاجعة تشبه عاصفة الصحراء، أيُّ صوت، غير لهاث قطٍّ مسجون قرب مدفأة في بيت عجوز لا تتحمّل ميزانيتها قططاً أكثر.

أظنّه كان سجين رأي، فقد كانت تمنعه من الخروج خوفاً عليه من آراء القطط الأخرى، فسجناء الرأي، لا يمرّ عليهم الزمن، لكن ما إن يخرجوا من المعتقل، حتّى يهرموا فجأة! أتذكرين كيف وجدناه، صامتاً قرب الحائط بعد وفاة العجوز.

أتكلم عن التجشؤ لربطهم المضاجعة بالإشباع! فهل كنتِ تمارسين الجنس لتعيشي؟ وأنا كنت أعيش لأمارسه! على الرغم من أنّه حالة فيزيولوجية من شدّ، واسترخاء، حتّى أنّ عضلات ردفي قد أخذت شكل عضلات عداء ماراثون، وقبل ذلك لم تكن لمعدتي تلك التقسيمات البديعة، الآن فهمت! كنت تمارسينه معي بطريقة اليوغا، كم أنت روحانية!

اللعنة عليكِ مازلتِ في سنتك الواحدة والعشرين.

لماذا كل هذه الحكمة في ادخار الجهد؟

ابتسمتِ، وابتسامتكِ لا يُعرف لها عمر، لذلك كان عمركِ في زمني، ابتسامة طويلة كساعديّ عندما يزنران خصركِ، مغطياً براحتيّ نهديك، فيما تنفر حلمتاك من بين البنصر والخنصر كخاتم شيخ جليل.أستطيع أن أحصل على براءة اختراع على "سوتيانة" كهذه.

جلدنا زلق، التعرّق على كامل مساحة الجسد، فهذا يفيد في تبريد نار المضاجعة ولو كان غير ذلك؛ لاشتعلنا ونحن نزيد كركر الصوف عقداً حرارتك + حرارتي أي (٣٧ + ٣٧) فيكون المجموع: (٧٤)؛ إنّها درجة الاحتراق، أو لنقُلْ "الاشتعال البطيء" ولن أنسى أيام الإصابة بالرشح وارتفاع الحرارة، فهذا ما يجعل مضاجعة الإنسان تختلف عن مضاجعة بقية

خلق الله، لقد فاتت هذه الواقعة داروين، وهذا ما يؤكد أنّ الإنسان كائن ذو نشأه خاصة.
المروحة لا تتعرّق وإن كانت من البلاستيك! والتلفزيون أيضاً لا يتعرّق على الرغم من بثّه الكثير من المشاهد الساخنة.
الشريط الإخباري: وفاة خمسة أشخاص بسبب موجة الحرّ، العراق وفاة .....
كان لقاؤنا شتوياً وفراقناً صيفياً.
شتاءان وصيف ذهبا قبل أن يدخل الخريف.
ذهبتِ كمن تقول لي: لستُ ورقة لأطفر في الدروب.
ليس من داع للكذب، أنا من ذهب؛ لأنني لا أملك غير هذه الغرفة المفروشة بعقد إيجار بقي منه شهران في هذا الصيف.
لن أجدد الإيجار!
كنت أريد أن أصبح كالمغرفة التي صعدت إلى السماء، لتصبح مجموعة نجوم، بعدما استطاعت تلك الأم أن تجمع الندى لوليدها، لست أكيداً من الأسطورة؛ ولكنّك تركتني ألحس كل قطرات العرق المتناثرة على جسدك في ليلة حارة كهذه الليلة.
في الصباح لم تسمحي لي أن احتفظ بدموعك، أنا من سوف يرحل كورقة تطفر في الدروب، تدفعها ريح المروحة في الزاوية.
صمت التلفاز وشفرات المروحة همدت كقط العجوز.
لقد انقطعت الكهرباء.
٢٠٠٧

الذبابة

يُدعى مرضي "التوحُّد"، هذا ما فهمته من معنى اسمه: صعوبة في التواصل مع الآخرين؛ لكنّني إلى الآن وقد أصبح عمري عشر سنوات، لم أجد حاجة لأزيد تواصلي مع الآخرين-ضمناً أسرتي- فأنا أضمّ أمي وأبتسم لها عندما تأتي إليّ؛ ألا يكفي هذا! وأفعل نفس الأمر مع أبي وأخي الصغير، على الرغم من أنّه من نشاطه الزائد، فهو لا يكفّ عن التكلّم، وتقليد الأصوات، والأسئلة، والطلبات، ومشاكستي.

لماذا لا يفهمون أنّي أقدَر على الصمت من الكلام، بالتأكيد، لم أشرح لهم ذلك، فهو أمرٌ بديهي لا يحتاج إلى إيضاح، وحتّى الطبيبة المعالجة لم تفهم صمتي على أنّه تواصل من نوع آخر، مع أنّي بين رفاقي، عندما أذهب إلى الجمعية المختصّة بشؤون أمثالي، لا نجد ما يستغرب في حالتنا.

أقضي معظم وقتي في غرفتي، فأنا أحبّ الرسم، الألوان تشبهني، فهي لا تريد أن تكون أكثر مما هي عليه وأنا أرسم أشياء جميلة؛ كما تقول لي أمي. إنّها مدرّسة رسم وربما ورثت هذه الموهبة عنها؛ أمّا بخصوص ما يُدعى مرض التوحّد، فأنا الأول في العائلة ولم يسبقني إليه أحدٌ وقد يحدث أن أورّث هذه الهبة في زمن التكلّم الذي لا ينتهي إلى أحد أولادي أو أحد أحفادي.

تضع أمي لفافة العصرونية على الطاولة، وتنبّهني ألّا اتقاعس عن أكلها، وعادة أتلقفها وأتابع الرسم، لكن هذه المرة، لست أدري؛ لماذا تأخرت قليلاً في تناولها؟ فوجدت ذبابة قد استقرت على الورقة التي تلفّ بها اللفافة، أبعدتها وبدأتُ بالأكل وأنا أراقب الذبابة تطير في فضاء الغرفة، فتغافلني وتحاول أن تقترب من اللفافة فأكشّها من جديد ولأنّها بدأت تزعجني، قرّرت أن أقتلها، تركتُ نثرة من اللفافة على سطح الطاولة، انتظرت أن تحطّ عليها وما إن غطّت حتى صفعتها بيدي، فابتعدت بسرعة كبيرة من تحت يدي التي تهوي على الطاولة، فسُمع لها صوت يشبه التصفيق الذي يجبروننا عليه، عندما تبدأ الأغنية التي لا أحبها في الجمعية التي تخصّ أمثالي.

كرّرت الذبابة محاولاتها وأعدت محاولاتي لقتلها، لا هي نجحت بأن تنال غذاءها، ولا أنا ظفرت بها، لكن أعجبتني مهارتها في الهرب بسرعة كبيرة. فكرتُ، لربما لو توقفتُ عن ضربها، سوف تعلمني طريقتها في الهرب، فهي متوحّدة مثلي ولا يوجد غيرها من الذباب في الغرفة وهكذا أستطيع الهرب منهم إلى وحدتي التي ما برحوا يحاولون إبعادي عنها.

مددتُ يدي التي عليها بعض الطعام وانتظرت ولم تمضِ فترة طويلة حتى غطتْ على إصبعي وبدأت تتناول طعامها إلى أن شبعت، فطارت وغطتْ على النافذة وبعد ذلك فكّرت أنّه ليس بلفافة واحدة تستطيع أن تكسب ثقة ذبابة، فتكررت اللفافات حتى بدأت تسمح لي بأن ألمسها وتطوّر ذلك حتى بدأت أمسح على أجنحتها بلطفٍ، ومن ثم سمحت لي بأن أراقبها بالعدسة

المكبرة، حتى إنها بدأت تأتي ما إن أمدّ يدي من غير أن يكون احمل الطعام، ومن ثم اكتشفت أن لا شيء لديها لتقوله مثلي! فتخلّيت عن سؤالها واكتفيت بصداقة صمتها، وهكذا إلى أن وجدتني أمي ذات يوم، والذبابة على إصبعي تأكل بعض الطعام ممسّدا لها ظهرها، فغضبت أمي وحاولت أن تقتلها، لكن الذبابة خبيرة بالهرب من تلك الصفعات، فطارت وحطّت أعلى النافذة.

أخذتني أمي إلى المغسلة ونظفت يديّ بالماء والصابون وأعطتني محاضرة مملوءة بالحب والحنان عن وساخة الذبابة وما تحمله من أمراض، فاكتفيت بصمتي.

أعادتني أمي إلى الغرفة وذهبت لتشتري مبيداً حشرياً، خفتُ على الذبابة وكان عليّ أن أخبرها كي تهرب، فالمبيد الحشري ليس كالصفعة، فهو ذو رائحة سيئة ينتشر في الهواء، فيصيبها بالدّوار، وتسقط على الأرض، من ثم تموت.

زنّت الذبابة قرب أذني وطارت باتجاه المدخل نحو المغسلة وغطّت أسفل فوهة الحنفية وغطست في قطرة الماء المتجمعة في فم الحنفية، فسقطت القطرة كأنّها سنّ لبنيّ إلى فوهة المغسلة واختفت الذبابة.

عندما عادت أمي وقفت لأخبرها أنّه لا حاجة لاستخدام المبيد الحشري فقد ماتت الذبابة. أسرعت أمي نحوي وهي تبكي وتحمد الله وتشكره على شفائي أمّا أنا، فنزلت دموعي لسبب آخر.

٢٠٠٥

المَطْهَر

تحرّك خطوة إلى اليمين ثم استراح مفسحاً المجال، ليستقرّ قربه المتدحرج من فوق إلى مكبّ الزبالة.
ضربَ الحذاء برباطه جنبيه بعد أن عاد له اتزانه الذي فقده بسبب الدحرجة من فوق، فطفق يزيل الغبار العالق به من جراء السقوط عبر منحدر التلة، قائلاً في سندامه: لابدّ، من أنّه كابوس ألمَّ بي. إنّ القدمين مرآة الجسم والفكر، فلا ريب أنّ هذا الكابوس انعكاس لألم قدمي سيدي فيّ! فمن غيري يشعر بالتعب الهائل للجسم الممتد فوقي، فتنتقل مشاعر الغضب إليّ عبر خطوات ثقيلة وقدمين تكادان تمزقانني.
كانت ليلة عاصفة، من دبرها له؟ من استطاع أن يحفر أعمق منه؟
دخل إلى البيت، صرخ وعرّ وقاتل الجميع وضرب الخادمة بي، عندما أفقدها جنونُه رشدَها، فتأخرت لتلتقطني من أمامه. أنا من سمعتُ الكلام الذي قيل له وحوّله إلى ثور هائج: **"أنتَ لم تعد محلّ ثقة".** فلم يملك إجابة إلّا بكلمة: **"ولكن!"**
لكنّ حالي الآن حقيقة وليست كابوساً.

*****

إنّه يوم القيامة، رائحة الموت وحدها هنا؛ تنفذ إلى أعماق الجلد المدبوغ، الشمس كجمرة في العين، فيما أشباح سوداء تحوم في المكان ودخان ينبعث من احتراق بطيء.
إنّها أبدية العذاب! صاح المتدحرج من فوق وتابع مولولاً: يا ويلي، ماذا فعلتُ حتّى أجني لنفسي هذا الدرك! وأخذ يضرب برباطه على صدغيه وذهب في نوبة تذكّر كأنّه في مرافعة أمام عدالة عمياء:
كنت لطيفاً على قدميه وكأنّهما في غيمة ندية، لم أسبّب له رائحة كريهة، وجرابه كأنّه للتو قد خرج من الخزانة، لم تتعرّق قدماه ولم يحسّ بالحرارة ولا البرودة، أنا من كنت أتلقاهما عنه، أستقبل بصدري الأرض الجافة والمبلولة وسواد الإسفلت، لم يعرف المسامير اللحمية منذ ابتاعني، فقد كنت مطيعاً كجارية أستجيبُ لحركته، كعبد أتمسك بالأرض كمخلب سبع. ماذا فعلتُ لتتنكّر لي ياسيدي! أيَّ ذنب اقترفت؟
- هوّن عليكَ، تكلّمَ مَن تحرّك خطوة إلى اليمين.
اِتسعت فوهة ولوج القدم في الحذاء وكأنّ قدم فيل حشرت فيها لهول ما رأى قربه؛ هيكل جلدي متقلّص على نفسه كالخوف متآكل الرأس والصدر، تسرّبت منه الكلمات كالدهن الذي يُصبغ به عندما تكثر منه الخادمة.
- لا، ليستْ هذه نفسي التي سوف تشهد عليّ!
عاد من أخذ خطوة إلى اليمين للقول: هوّن عليكَ وهو يراقب طيراً يعلو وينخفض وأشباحاً تعبث في فوضى المكان.

- لا لستُ ما تظن؟! ولا اليوم يوم النشور، لكنّه زمن التأمّل والتفكّر قبل أن يصل هذا الاحتراق البطيء إلينا. مازلت جديداً، وهناك حياة أخرى تنتظرك؛ لربما معرفة جديدة لتكفّر عمّا ارتكبه صاحبك القديم، لو أنّك كنت قاسياً على قدميه بمسمار لحمي واحد فقط؛ لربما تذكّر الأقدام العارية، لو لم تتشبّث بالأرض؛ لتزحلق وسقط من عليائه وأحسّ بمن ذابت أقدامهم وأحذيتهم لكثرة ما مشوا وركضوا في زواريب الحياة. أتذكّر، تماماً، اليوم الذي اشتراني مالكي فيه، عندما هرم صاحبٌ لي وتمزّق صدره إثر ذبحة قلبية لكثرة الإجهاد، لم يتركه وحيداً في محل الأحذية ليكون مصيره حاوية الزبالة، وإكراماً له، لبسه للمرة الأخيرة إلى البيت وخفّف له من حمله، فتحوّل إلى شحاطة. في البيت عشنا أياماً سعيدة حتى لفظ أنفاسه الأخيرة، فرثاه بكلمات جميلة. كان حذاءً جيداً، أمّا أنا، فقد خدمت لديه كحمار صبور، وعاملني جيداً في آخرتي ولم يبخل عليّ بالدهون وأخذي إلى الحذّاء. كانت حياة جميلة، فقد رقص بي في نجاح ابنه، كذلك في زواج ابنته. لقد حميته كثيراً من السقوط وعندما كانت تخونني قدرتي ويتزحلق؛ كان يتأكد من سلامتي. كان شرطياً جيداً لم يتأخّر عن إطلاق صفارته ويندر أن حدث ارتباك مروري أو حادث دهس في مكان وقوفه، حتّى أنهم تأخروا في وضع الإشارة الحمراء لجدارته في العمل. نعم أستطيع أن أفخر، لقد عشتُ أياماً جيدة.

صمتَ من تحرّك إلى اليمين خطوة، إذ عندها كانت ألسنة الاشتعال البطيء قد بدأت تداعبه.

مازال المتدحرج من فوق فاغر الفم متوسّع العين، لم يحرّك خطوة اتجاه من صمت منذ قليل. الأشباح التي كانت بعيدة اِقتربت، ظلّله ظلٌ، امتدت يد قاسية قذرة، التقطته، قلّبته ثم أحسّ برائحة نتنة وقدم لزجة تدخل جوفه مع ابتسامة عريضة توسطت وجه الشبح ثم خطوة للتأكد وتتابعت الخطوات.

٢٠٠٧\٦\٢٠

ولكن... كعب البغل

صرخ أبي: أنتَ بغلٌ من يوم تكوّنت في بطن أمك! أنهكتها من كثرة الرفس وازرقّ بطنها.
للحقيقة، لا أتذكر ماذا كنت أفعل في بطن أمي، لكن في الحمام، كنتُ أقفز كفرخ[٢] سمك، أرفس بقدمي طشت الماء، فتلسعني صفعاتها، فأهدأ؛ ليزرقّ جلدي بعد ذلك.
قيل عن حالتي الكثير، ووجد المشايخ في كتب حكمتهم كل شيء: القمل، البراغيث، البرغش حتى نقيق الضفادع، ولكنّهم لم يستدلوا إلى دواء يشفي طبعي المتبغِّل وحاروا في أمري، فلم تنفع معي جميع الخطوط، والأحرف، والآيات، وذكر عفاريت الجان، وكبار الملائكة، فكنت ألبس الحجابات كالنياشين تحت قمصاني وفوق ثيابي وكان لي مجموعة من الحجابات تحت المخدة وفي أماكن إنْ بحثتُ فيها وجدتها، وكثيراً ما تخلّل طعامي وشرابي طعمة الحبر والورق المحروق، وهذا ما أورثني عادة لحس الورق المحروق وخاصة عندما تصل حالة الرفس لدي إلى درجة لا تطيقها قدماي ، فأشعل ورقة، أرمدها وأبدأ بتعاطي رائحة الورق المحروق ورماده، عندما أكون متأكداً أن قواي قد خارت ولن ينفع معي حتى الضرب بالعصا! كما كان يفعل أبي مع البغل! عندما ينوء تحت حمله؛ أما الأطباء الذين تخرجوا من جامعات الدولة، فقد تكلموا عن عزيز نيسين، وقتها عرف أبي أنه دواء تركي وقد أهمل موسم الفلاحة وهو يوصي المسافرين والمهربين في المدينة على عزيز نيسين، ولكن القشة ليست في كومة الإبر.
رفست رفاقي في المدرسة عند العراك، وفي لعبة كرة القدم تشابهت أقدامهم مع الكرة ولكنهم كانوا يتجاذبونني كلٌّ لفريقه، فلدي "شوطة" كرة كانت تخترق الشبكة الوهمية وراء الحارس، وإن تشجع وأمسكها بيديه، تحمرّ ويسلخ جلدها من شدّة الضربة.
نادراً ما كنت أجيد التصويب وقد حاول مدرب فريق من الدرجة الثالثة أن يحّسن من قدرتي على التصويب، فانتهى ذلك برفسة على قفاه بعد تجاوزحدّه في الكلام معي، ورفست عائلته حتى الجد السابع بكلام من طبيعة بغلية، وهكذا اقتنعت بعدم جدواي في هذا المضمار على الرغم من نظرات الحسد الذي كنت أراه في أعين البعض، عندما يغضب الله على حجر ويضعه في طريقي.

---

[٢] - سمكة صغيرة

لم ينجح بيت الشعر بأن أقوم للمعلم تبجيلاً، ولا المثل الذي يدعوني لأصبح له عبداً، فرفستهم ورفسوني، حتى هوّن الله عليّ وعليهم بأن أنهيت المرحلة الإعدادية، فأخرجني أبي وقال كلمته الشهيرة التي ذهبت مثلاً: بغل مثلك لا يؤدبه غير المحراث.

جاء موسم الفلاحة وساقني أبي مع البغل إلى الحقول، فكما كان يلهب ظهر البغل بعصا الرمان التي لها ليونة السوط؛ كذلك ألهب ظهري مرات عديدة، وكنت أحتمل ذلك. أصبحت رجلاً، فلقد احتلمت منذ فترة وكنت أنصب خيمة بين فخذي، وخاصة عندما أتذكر تلك البنت التي سميتها فيما بعد، حبيبتي، ونقشت اسمها على زندي، وقلت ياولد -أحيانا أخطئ وأقول يا بغل- : لقد كبرتَ؟! اهدأ، حتى البغل خاله الحصان.

تزامن موسم الفلاحة مع تهيج مشاعري ومواعيد رؤيتها مع ساعات الفلاحة وهي عائدة من المدرسة لتقطع النهر بعد أن تبلل قدميها بالماء وهي جالسة تتأمل انعكاسها في صفحة الماء المتموجة.

وهنا تضاربت البغلنة مع الفلاحة والحبّ، فاخترت حبّها وركبت رأسي وأنا أسمع صوت أبي ورائي ينكش جذور العائلة من الأرض إلى السماء باللعنات.

تطورت القصة بيني وبينها، فقد فاحت كرائحة التيس، وسمع أخوتها وأبوها وأعمامها وأخوالها، فقدموا إلى أبي ولكنه تبرأ مني كما بُرئ الذئب من دم يوسف، وجاءني رسل سلام، فلم ينفع ذلك، فالحب أقوى من كل الشدائد، هكذا تقول الأغنية التي يبثها الراديو الذي اشتريته من مال أعطاني إياه أبي بعدما خدع نفسه وقد قال: إن الولد قد صلُح.

السفلة ضربوا حبيبتي "علقة[٣]" من كعب الدست، فتورم وازرق جسدها؛ هكذا قالت لي رفيقتها وهي ترتجف من شخير تنفسي.

فحملت على بيتها أريد خطفها لنتزوج بعيداً من هنا، فتكاثر عليّ أخوتها وأخوالها وعمومتها، وبقي أبوها يتفرج عليّ بعد أن سحبها من الداخل ممسكاً بشعرها لترى كيف يروضون البغل! فراحوا ينهالون عليّ ضرباً ولكماً بكل ما توفر، ورغم كثرتهم كسرت يد أخيها ورفست ابن خالتها رفسة بين ساقيه طيرت عينيه من وجهه، لا أعرف لمَ سمعتْ كلمة -كووول! - من فمه.

لكن لكلّ حصان كبوة، فانطبق المثل على البغل وسقطت مضرجاً بدمائي، وجاءت الشرطة، ولكن بدلاً من السجن أخذوني إلى المشفى، ولم تمض أيام حتى قفزت من الشباك في الدور الثاني وذهبت إلى لبنان ولم أعد رغم الصلحة التي دخل فيها كبار القرية والمشايخ من القرى المجاورة وسقوط الحق العام وتزويجها من ابن خالتها الذي لم تنجب منه.

---

[٣] – كناية عن شدة الضرب

مضت سنة ونصف وقد اشتقت إلى أبي وكلمة البغل وحنان أمي رغم بغلنتي، فقد كانت تراني حصاناً، وعلى الحدود قبضتْ عليّ الشرطة وساقوني موجوداً إلى قطعتي العسكرية.
هنا دخلتْ حرب طروادة أيامها، فكنت أرفس وأدخل سجن الكتيبة الحربية حتى مضت ستة أشهر، فرفستُ الضابط المسؤول عن قطعتي رفسة أطارت الرتب العسكرية عن كتفيه، وحكم عليّ عشرين سنة بالسجن أقضيها مع الأشغال.
"سقط (أخيل) من كعبه وابتلعته مياه هيدز[٤]"
في السجن رفست القضبان الحديدية، وحيطانه وجلاديه والمساجين حتى جاء يوم تخدرت فيه قدماي وقد مضى عليّ خمسة أعوام، بعدها هدأت رفساتي ومرت الأيام حتى انقضت عشر سنوات وأخرجت في السنة الثالثة عشرة لحسن سلوكي والتزامي بأعمال السجن وما يترتب عليّ تعلّمه.
عدت إلى الضيعة كحصان، فاستقبلتني أمي بالزغاريد، أمّا أبي فقد أقسم قائلاً: لن تدخل عتبة هذا البيت، يا بغل. فتمرغت أمام قدميه وأثرت غباراً وقبلاً ودموعاً على يديه، فرقّ قلبه. دارت الأيام، وتطلقت حبيبتي من ابن خالتها لكثرة ما عيّرته بعدم فحولته وأنّه لا ينفع معه إلا للبول، فرجعتْ إلى بيت أهلها تخدم زوجات أخوتها وتلعن ساعة البغلنة إلى أن وقفتُ في باب بيتهم مع جمع غفير من وجهاء الضيعة ومشايخ القرى المجاورة، فقد عاد الولد الضال، وما الخطأ في أن نذبح له العجل المسمّن!
- لا تضربيه، إنّه يشبهني!
فينقلب البكاء إلى ضحك، في حين تتوقد جمرات الفحم الحجري في كور النار ، فيحمرّ قضيب الحديد الذي سأصنع منه حدوة لبغل والد زوجتي، وجدِّ ابني.
٢٠٠٧\٦\١١

[٤] – الجحيم بالأسطورة اليونانية

رجل منتصف العمر

اتصلتُ برفاقٍ أبعدتني عنهم الأمكنة والأزمنة، موسعاً دائرة البحث؛ حتى إن بعضهم استهجن الأمر.
أين نجد لك ما تسأل عنه؟ ألهذا تتصل؟
البعض لم يوفر جهداً، فلقد حصلت على بعضٍ ما طلبت منهم، أمّا على صعيد العائلة، فأقمت عملية تنقيب كبير، قادت إلى بعض النتائج المرجوة لا أعتبره كاملاً -ألبوم الصور-ولكنّه جيد مع بعض المجهود، فقد أستطيع أن أعيد تركيب الماضي؛ من أجل ذاكرة أفضل.
أجلس في خلوتي، أمارس طقس التذكر، هنا صورة لي، وأنا في رحلة إلى تدمر، وأخرى لرفاق لي في التعليم الثانوي، وهذه أول (قصة على الصفر) لشعري عندما خدمتُ عسكريتي، وهذه صور طفولتي التي تصبح فيها ذاكرتي مرمّزة بحنان وشوق غامضين، لكنّها بلا أفكار لأعيد صياغتها وخاصة عندما كنت في طور الرضاعة ..... (آه يا أمي، لو أنك ماتزالين على قيد الحياة؛ لكنت أسعفتني بما أريد ...)
يقول أبي: ما بك يا مجنون، وهل تركت لنا الحياة الكثير لنتذكره؟ أما البقية فقد اعتبروا أن هناك مشروعاً أعمل على إنجازه.
ماذا أقول! لم يبقَ لي شيء آخر غير التذكّر، والباقي كله متشابه بطريقة تدعو للدوران وفقدان الوعي.
لم أكن أستطيع اعتبار السعي وراء لقمة العيش والسكن وتأسيس أسرة هو حقاً ما يملأ الحياة بهجة وانشغالاً، ونسياناً، وحزنا؛ بحيث يصبح وضع الرأس على المخدة نهاية الأيام هو المشتهى؛ هناك شيء آخر مفقود يربط بين تلك الحالات المبعثرة ويخرجها من العادة القاتلة إلى رغبة في يوم جديد!
أعترف أنّي أصبحتُ كالبقرة التي تعود من المرعى مساء؛ لتقضي الليل كلّه وهي تجترّ العشب الذي قضمته.
لو أجري وراء الكرة حتى تتكسر قدماي في تلك الحواري، وأعود للبيت متسخاً وآكل نصيبي من الصفعات الحنونة من أمي، فالأمهات عندما يضربن! يضربن بعاطفة.
إني أحنّ إلى بعض هذه الكفوف وصراخها: "ألم أقل لك، لا تلعب بثياب المدرسة ثانية" ولكنّها عندما تدفعني إلى الحمام وتسكب أول طاسة ماء ساخن تبدأ بالغناء.
أحن إلى أنْ أستيقظ صباحاً لأجد حبّ الشباب قد نفر في وجهي، فأعمل على تنظيفه، وأنظر إلى شفرات الحلاقة العائدة لأخي الكبير.
الحلاقة هي الوسيلة الناجعة للقضاء على حب الشباب -على بعض الفتيات أن يحلقن!

ومن ثم أسرّح شعر رأسي، أسمع أبي يقول: ما هذا الوسخ الذي تضعه على رأسك، أتجاهل كلماته وأهرع إلى الشارع، أنتظر قدومها على زاوية الطريق، فقط لتسلم عليّ، ولنتمشى صامتين باتجاه المدرسة، فهكذا أكون قد حضرت ما يلزم لأنام ليلتي وأحلم بغدٍ يفكُ صمْته الكلام.

ماذا حدث لك أيها القلب؟ لماذا لم تعد تجيد غير ضخ الدماء؟ إنك كوظيفتي والطقم الذي ألبسه جامداً كتمثال، لا تقارن – أبداً -بأيام بنطال الجينز وT شورت وحذاء الرياضة، أيامها كنت تصهل كحصان في داخلي وتدق بحوافرك على قفصي الصدري.

هل أنا عجوز هرِم؟ حتّى يتغضّن وجهي ويزيد اتساع صلعتي أو يهتز ظلّي كشجرة تداعبها الريح! هذا مالا تقوله هويتي، فأنا في العقد الرابع يعني: شباب!

إذن؛ لمَ لم يبق لي غير الصمت والتذكر؟ هل أنا غير سوي؟ يخيفني السؤال؟!

أمضغ كل شيء ببطء سلحفاة، وقد وضعت ملقطي غسيل على وجنتي؛ كي أحافظ على بعض ابتسامه، فلست قادراً على تحمل تلك النظرات المستفسرة ولا أستطيع الشرح، منذ زمن بهتت ألواني وبتّ أقوم بكل أعمالي بشكل نفّر الآخرين مني.

(أربعون حولاً لا أبالك يسأم) أضحكتني المقارنة جداً، فرحتُ أسعل من كثرة القهقهة لتلمع في ذهني فكرة قد تجعل الحياة أقل رتابة؛ أو لنقل متفجرة كنبع في الربيع؛ إنها الرغبة في الحياة أو بطريقة رومانسية الحب.

أخذت نفساً عميقاً، وسعّتُ أفق الشباك الذي أطلّ منه على الشارع الفرعي في مكان عملي، أزحت كل تلك البنايات، مددت الأفق وأخرستُ الزحام وأنا أدندن أغنية شبابية، نقّيت الهواء من حولي بياسمينة وشجرة ليمون ومع برودة تنساب من البحرة الصغيرة في الدار، ابتسمت لزميلتي بدون ملاقط غسيل على الوجنتين: أراكِ غدا!

يجب أن أحبّ، أن أعشق، أن أهيم.

من إذاً؟ زميلتي في العمل، السكرتيرة، ولكني لست مديراً لتقع في غرامي! مراهقة كـــ(لوليتا) لنبكوف ومن أين أجد امرأة مطلقة أو أرملة لأتزوجها ومن ثم تغرم بي ابنتها؟! ولكن يجب أن أقتل أمها إلا أن اللعبة قد تنكشف وأخسر كل شيء، ولكنني لست قاسياً حتى أني أخاف من منظر الدم وهذا ما عطّل على أبي حلمه بأن أصبح طبيباً، ضحكت من كل قلبي على تلك الأفكار حتى من كان معي في الباص قد ظنّوا بأنني مجنون.

لم أذهب إلى البيت مباشرة، قصدت تلفوناً عاماً، اتصلت وقلت جملاً كثيرة دون أن

أنتظر الإجابة: بعد نصف ساعة هناك، لا تتأخري؟

ساعتي تنقل عقرب دقائقها بكل تأنٍ وأنا أنظر إلى الميناء الذي تآكل لونه ومعدنه، عشر سنوات مضت وأنتَ في يدي؛ كانت ليلة حمراء عندما أهدتني إياها.
مضت خمس دقائق على الوقت المحدد، إنه الزحام هذا ما فكرت به، سوف تأتي بلا ريب.
جلستْ قبالتي على الطاولة ملهوفة وجهها يحمل ألف سؤال!
- ماذا تشربين؟ أو بالأحرى ماذا سنأكل؟ وبوجهٍ يكاد يلتهمني لينطق غاضباً من الهلع الذي سببته لها. ولكن قبل ذلك، نظرتُ إليها بعينين تعودان إلى عشرين سنة مضت وقلت: أحبكِ...
رنّ تلفوني...
- أين أنتم؟ هل حدث شيء؟
أجيب: لا شيء يا ولدي ولكنّني دعوت أمك إلى الغداء.
أغلقت الألبوم.
-٢٠٠٧\٥\١٨-

الرصيف الآخر

القصبة منحنية، كألف كتبها طفلٌ بقلم هارب من بين إصابعه، في حين تتأرجح الفلينة مع الموج الذي له حركة النواس.
أنْ تجلس بهدوء؛ فهذا يعني أن تترك ظلّك يرسم حركة الشمس التي بدأت تتسلّق درج السماء، وهذا سيفضي إلى معرفة كم من الوقت يجب أن تقضيه في الصيد، ولا بدّ أنه طويل أكثر من سلك خيط صنارتك.
كان الضوء والظلّ شهيين على مكسر الموج؛ كي أحلم أن أكون رساماً، فألتقط سمك اللون في اللوحة، هذا ما قلته لصديقي الذي يهوى الرسم الانطباعي، ولا يبرح مرسمه وأردفت كلامي له: عن أيّ انطباعية تتكلّم، أظنّها تذكارية!
الصياد الذي كان قربي، وجد مكاناً جيداً لكرسيه، والحظ أصابني أيضاً، فعلى الجانب الأيسر منه، استوت صخرة، أظنها مناسبة لأبدأ يوم الصيد الأول لي.
ألقيت التحية عليه، ثم جلست، لم يبادرني بشيء بل كانت عيناه معلقتان بالفلينة التي غاصت لتوها في الماء وبحركة ارتدادية كالأفعال الانعكاسية استقامت القصبة وبدأت بالتأرجح يمنة ويسرة، فيما فرخ٥ السمك يرقص في هواء الموت إلى أن استقر في كفن من قصب.
حضّرتُ عجينة الخبز، وثبتّها ومن ثم أرسلت قصبتي في الهواء، سقطت الفلينة على وجه الماء وبدأت بالانتظار، ومراقبة الوقت يجري في ساعة اليد، ربع ساعة مرّت، فلينتي لا تحركها أنغام العمق، تسلّل الخدر إلى ساعدي، حرّكتها قليلاً، فاهتزّت قصبتي كعداد السرعة. شكلتُ القصبة بين قدمي، مسنداً إياها لفراغ بين صخرتين، متابعاً الصيادين من حولي، فكلّما انتشل أحدهم سمكة، أراقبه ليس حسداً، لربما من أجل تغيير مكاني، فالسمك لا يهدأ في مائه وهذا المكان قد أنهاه هذا الصياد الصامت.
تغطس فلينتي، تجذب معها يدي الممسكة بالقصبة برخاوة، أضغط قبضتي بشدة وأرفعها عالياً لأجد الشصّ عارياً إلّا من حرابه الصغيرة، لقد خدعني السمك. ألصق العجينة من جديد، أقذف بالصنارة إلى الماء، وأنظر إلى سلّته كأنّها مقبرة جماعية. يمضي الوقت، الساعة العاشرة الآن، أصبحت منهكاً، عطشاً والعرق جعلني أشعر بالضجر، لم أصطد أيةَ سمكة، أنا من ذهب إلى البحر ورجع عطشاناً! ألملم عدتي، أهمّ بالذهاب، صوت يناديني:
يا أنت! خذْ، ألتفتُ إلى الصياد الصامت وبيده السلة، أمسح العرق عن وجهي وأقول: أنا؟ فيجيب: نعم أنت.

استعجلت القدوم في اليوم التالي ، فوجدته في مكانه، صبّحت عليه، وشكرته على سلة السمك، رد بابتسامة مقتضبة وتابع هدوءه.

---

٥ - سمكة صغيرة

كلّي أمل اليوم، أن أصيد ولو سمكة، تابعت رمي صنارتي، لأخرجها بعد هنيهة وسخرية السمك الذي أكل الطعم وهرب، كانت صيدي.
مدّ يده، ناولته القصبة بصمت، وضع العجينة في مكان أعلى بقليل ممّا كنت أفعل ثم رماها بخفّة لتسقط الفلينة بعيداً في الماء وأعادها لي وهمس: القصبة يدك الثالثة، فتعلّم استخدامها كيديك الأصليتين، ارخْ عضلات ساعديك، وانسى تماماً وجودها ومن ثم استشعر كلّ اهتزازة غريبة وماكرة، فالموج له اهتزازات متواترة تتسلّل إلى أعصابك دون الإحساس بها، لكن ضمناً هناك هزّة نشاز وعلى أذن يدك أن تلتقطها، في تلك اللحظة اجذب القصبة بسرعة للأعلى.
وفي غمرة إنصاتي له، وإذ بحركة فجائية، كما يطبق الشرك على الفريسة، انتصبتْ قصبته كراية مزينة بفرخ سمك يخفق في الريح.
انطلق نفير الحرب، ارتفعت رايات صيادين آخرين، ولم ألحظ أن دوري قد حان حتى صرخ بوجهي: الآن.
كجندي نسي وضع حربته بينما أبواق الحرب تنفخ، شهرت قصبتي. كان الفرخ هناك قاب حلم وهروب، خفق قليلاً مع رايتي ثم قفز إلى الماء، فرأيت محكمة الميدان أمام عيني وحكماً كاد يصدر عن الصيادين، لكن لم يبالِ أحد، كأنّ ما حدث لا يعنيهم، نظرتُ إليه لم يعرني انتباهاً، سحبت الخيط، وضعت الطعم حيث وضعه ثم قذفت الصنارة إلى الماء.
"إنها الهزّة النشاز التي سوف تطربك في المرة القادمة، لا تنظر إلى سلّتك الفارغة بل انظرْ كم هو البحر كبير، وصنارتك صغيرة، اتساع بهذا الامتداد، احتمالاته كبيرة؛ لكن الانتظار يخفّف من عدد الاحتمالات بل يجعلها على عدد أصابعك".
النوتة جاهزة ما عليك إلا أن تنقر بإحساس مرهف، وستسمع اللحن الذي تحبّ وستجده كلّما كنت قادراً على الصمت.
صمت الصياد وأنا كذلك، مرّ الوقت، ساعة يدي اختفت، بدأت أسمع حركة عقرب الثواني من زعانف السمك الذي يقترب ويبتعد من عقرب الدقائق إلى أن دقت تمام ساعة الشصّ، فتحت السمكة فاها، وانطلق عصفور الساعة يعلن تمام انتصاب القصبة، كانت هناك كقلعة رفعت الراية البيضاء، سحبتها بهدوء، قبضت عليها بأصابعي، تحسّست الأوتار رفعت النوتة عن الشصّ، شممتها كانت كزند صاحبتي لكن رائحتها أحلى، ستجن إن قلت لها: إنّ رائحة السمكة دوختني أكثر من رائحة عطرها، فلأول مرة، سلّتي حامل بسمكة.
سمكتان حصيلة صيدي اليوم ودّعت الصيّاد الصامت مع أننا تبادلنا معرفة الأسماء سأقول للأصدقاء: إنّ حظي اليوم كان سيئاً، ليس كالبارحة وسيصدقون، فسلّة البارحة، هي البرهان.

****

أصبح الأمر تحدياً، فقد جئت اليوم باكراً، فسلّتي يجب أن تملأ بالسمك.
مازلت في موقعي نفسه، فلو كان الصياد الصامت يجد في الانتقال جدوى؛ لترك مكانه، فهو أكثر الصيادين حظاً، وسلّته دوماً عامرة.
تقريباً، كادت الشمس تنهي سلم الصعود، خمس محاولات فاشلة، أرى بها السمكة تقول: ابتسم، سألتقط لك صورة، أريها إلى سكان عالم الماء، ومن ثم تختفي في الأزرق. تمنيت لو أن السمك يملك علامات فارقة غير قصة النوع، لكي يكون لطريدتي هوية، أميزها بها عن غيرها من السمك، عندما تقبض عليها أصابعي، فأهمس بأذنها: ابتسمي سألتقط لك صورة، أريها إلى سكان عالم البر.
ثلاث سمكات صغيرات، أيّ صيد هذا! ما زلت قادراً على الصمود، لن أعود، بدأ الصيادون ينسحبون عندما تربعت الشمس في كبد السماء، الصياد الصامت مازال هنا على الرغم من أن سلّته لم تكن ممتلئة هذه المرة، ولكن بالنسبة لي، اعتبره صيداً وفيراً. بدأ يطوي عدّته وعندما انتهى، أشار بيده إلى مكان على الشاطئ، وقال: غداً، أتذهب إليه، قلت له أين؟ قال لي: إلى الرصيف الآخر على ما يبدو أنّ السمك هنا قد أخذ حذره كثيراً. السمك يتعلّم، فكل سمكة قبل أن تخرج من الماء تترك وصية تحذيرية لغيرها من كائنات البحر:(ليس كل ما في متناول اليد يُعدّ جيداً، يجب بذل الجهد للحصول على الطعام الآمن)، لحظتها طربت أصابعي للحن المحبب وإذ بسمكتي الرابعة، قلت له: إنّها سمكة لم تسمع بعد بالوصية، فأجاب بل إنّها الوصية لك الآن، غداً أراك! وأنا في حيرة من ردّه، اقترب منه رجلان، انتشلاه كما تنتشل السمكة الكبيرة بالشبكة وأخذاه إلى سيارة قريبة، كان مشلولاً.
واقفاً كصنارتي أنظر إليه، رفع يده من نافذة السيارة: غداً، ألقاك هناك.
تبتعد السيارة، تهتزّ قصبتي كإبرة مسح الزلازل، ثم تتوقف، وبطرف عيني أرى السمكة ترسم خطاً منحنياً في الهواء وتغوص في الأزرق، بعيداً إلى الرصيف الآخر.
٢٠٠٦

كابينة الهاتف

لم أعتبره حظّاً، لكنّ قدومي المتأخّر إلى كابينة الهاتف في الساعة الواحدة ليلاً؛ هو ما كان يجعلها متوفّرة لي بتلك الطريقة المعطاءة؛ أمّا الحظّ، كلّ الحظّ، فكان يكمن في عدم وجود عاشق مثلي، مغرم بأنثى في البناية الملاصقة لكابينة الهاتف، ولديه هذا الشغف بالسهر تحت شرفة حبيبته كلّ ليلة كما أفعل.
السهر تحت شرفة الحبيبة أكسبني الكثير من الأصدقاء، فبتّ أجلب بقايا الطعام للقطط والفئران المتصالحين إكراماً للحبّ، حتى إنّ دورية الشرطة قد تفهّمت حالتي، عندما قال أحدهم لزميله: اتركْه! أسألني أنا، عمّا يعانيه؟
وهكذا أمّنوا لي الدوريات الأخرى التي تتبدّل بين فينة وأخرى، فتُرِكت لشأني، ولم يعد هناك شيء ينال من جمالية السهرة تحت شرفتكِ، والهمس لكِ عبر الأسلاك التي أفترض أنّها تمتدّ مباشرة إلى هاتف غرفتكِ، دون أن تدور مع الشبكة إلى المقاسم الأخرى ثم توزّع صوتي لك عبر علبة التوصيل على الحائط.
كم كنتُ أستلذ بسيجارتي عندما يضخّم دخانها برد الشتاء وأنت تهمسين: لا تكثِرْ من التدخين، فالرؤية من فوق تعطي انطباعاً بأن كابينة الهاتف تحترق، فأرد: ليست الكابينة التي تحترق بل أنا الذي أتجمّر من شوقي لك.
استمرّ سهري تحت شرفتك كأجمل ما يمكن أن يكون، إلى أن تفاجأت في إحدى الليالي بمجموعة من عمال البلدية يقومون بإزالة الكابينة من مكانها، فاقتربت منهم هلعاً وناديت بصوت يشبه الصراخ: ماذا تفعلون؟! فرمقني العاملون وكأنهم يرون مجنوناً، فتنبهتُ إلى دهشتهم، وكمن يستجدي حسنة أخبرتهم عن أهمية كابينة الهاتف في هذه المنطقة، وكم توفّر علينا من مشقة؛ كونها الأقرب، وفي متناول اليد، وخاصة في الليل، فقال لي أحدهم: إنّها لا تعمل! فأجبته: ولكنّي تكلّمت منها البارحة وكلّ يوم، أفعل ذلك!
لم يهتمّوا لكلامي وتابعوا عملهم، فتدخّلت لكي أمنعهم، فنهرني أحدهم: أأنت مجنون! فصحت:
هل تريدون أن أجرّب لكم صلاحية هاتف الكبينة! سوف يعمل أمام أعينكم، فضحكوا من جدّيتي وأنا أتمتم: ولكن، ولكن...
اقترب أحدهم منّي بعد أن هاله منظري: هذه الكابينة معطّلة منذ شهور والشركة المشغّلة انسحبت من عقدها مع جهة الاتصالات لعدم جدواها، فماذا تقول أنت؟! ولكن، ولكن...

2007

ثياب

بلغتُ منذ فترة، وهذا النضوج لاحظه أبي في ملامح ظلّي، الذي بدأ ينمو بشكل يدلّ على تسارع حركة الشمس في السماء، ولحظته –أيضاً- في همهمات رفاقي، وهم يحاولون مجاراة ظلّي.

لم نكن عائلة فقيرة، لكنّ الأصغر كان يلبس الثياب التي ينمو عنها جسم الأكبر وأنا الأكبر بين أخوتي، فلم يكن هناك من كبير عليّ غير أبي؛ لذلك كانت ثيابه من نصيبي، بدءاً من حذائه إلى سراويله، فقمصانه. كنتُ ألبسها كما هي؛ دون أيّة محاولة لجعلها على مقاسي، وجرّاء ذلك، كان أبي يبتسم، ويقول بفم ملآن: رجّال!

فيما رفاقي كانوا يثرثرون قائلين: إنّي أشبه بالمهرج الذي يشاهدونه في التلفزيون. أمّا أمّي، فكانت خياطة ماهرة!

٢٠٠٧\٤\١٥

الشاعرة

صرختُ: إنّها هي! وضممتُ الجريدة إلى صدري. هي من أهدتني أوّل شفرة حلاقة، ومن سرّبتْ يديها في شعر صدري في أوائل الربيع كخادرة تتفتح مثل زهرة النرجس -آه- كم هي شاعرة رائعة!
أميّز جداولها التي تستر قلبها بماء النهار، وترتدي في الليل ظلال الندى.
تعرّفت إليها من كتابها الأول الذي وقع في يدي مصادفة، أمّا بقية كتبها، فحصلت عليها من مكتبة على طريق مدرستي. لا أعرف ما كان يعتريني عندما أراقب كتبها في صدر المكتبة! أهو الحب؟!
مضت سنة، وبقيتْ في لون الحرف، بعيدة عن الأضواء، إلى أن قرأتُ في الجريدة عن خبر توقيعها كتابها السادس.
مضى الوقت كالسلحفاة وأنا أقفز حوله كأرنب يمارس هزيمته بإصرار.
دلفتُ إلى قاعة دار الكتب التي نشرت ديوانها في معرض الكتاب السنوي، كان هناك جمع غفير، تبيّنت طاولتها من الدائرة البشرية التي حولها، اشتريت كتابها السادس وتقدّمت نحوها لأوقّعه من يدها التي حلمتُ بها تخطّ إهداءها لي، لي فقط!

***

كانت ضئيلة جداً خلف الطاولة، واليد زنرتها خواتم السنين، والشعر الأبيض ليس من حبر فيه. وبوجه فارغ من الزمن سألتها: أأنتِ، أنتِ!؟
وقبل أن تجيب، غادرت المكان!
جلستُ قبالة المكتبة، تناولت كتابها الأول، وبدأت بالقراءة.

٢٠٠٧\٤\١٦

رمادي

أبيض، أسود، خراف، ذئاب، والموج الأزلي يطوّق جزيرة الخلق بعقد من الياسمين، يغني: الخراف ترعى العشب، والذئاب تفترس الخراف.
الحزن كبير بين الخراف والفرح كبير بين الذئاب!
عشب، ماء، حزن، والخراف تتضرّع إلى خالقها أن يزيل عنها هذا العذاب.
لحم، عظام، عواء، والذئاب تشكر خالقها أن يزيد هذا النعيم.

****

وحدث أن استجاب الخالق؛ لتضرّع الخراف؛ لأنّها صلّت من قلبها بكلّ خشوع وأمل ويقين بأنّ الخالق مستجيب لدعائها.
وكان أنْ ولد خروفٌ، قرناه حجريان وثغاؤه صوت الرعد، وعيناه لمح البرق، فقاد حملة كبيرة، صبغت العشب الأخضر بالأحمر؛ الأحمر من دماء الذئاب والخراف؛ لكنّ المشيئة سوف تتم، وتنتصر الخراف وبعد النصر الكبير، بدأت حملة تطهير للذئاب، ومن لم يمت بقرون الخراف، دُفع إلى البحر حتى غرق، هكذا لم يبق ذئب واحد.

******

شكرت الخراف الخالق، شكراً ممزوجاً بالفرح والدمع، ونما العشب الأخضر بكثرة على جثث الذئاب ودمائها.
رعت الخراف. رعت، فشبعت، فتوالدت بكثرة وعمّت السعادة.
بدأ اللون الأبيض يفترس اللون الأخضر. أكلت الخراف ما فوق الأرض من العشب، أكلت ما تحت الأرض من جذور حتّى لم يبق عشب إلّا في مخيّلة الخراف، فتضرعت كثيراً، لكن الجوع أخذ يفتك بها.
تضرّعت؛ لكن ما من مجيب! ماتت جميع الخراف، ماتت جميعها.
٢٠٠٥

متتالية الساعاتي

ثانية:
مضى الوقت، كشحّاذ يتلفّت إلى بابيَ المقفل بوجهه، فكانت دقات ثوانيه، كأنّه يستجدي لحظة يقيم بها صُلب يومه أو يمنحها إلى سادن الماضي الذي رميتُ بوجهه كلّ صلوات الحاضر وحطّمت مجامر صيام المستقبل في محرابه.
أصرخ كممسوس بجحفل من شياطين التشرد والقلق والآنية: فلتذهب السكينة إلى الجحيم، لن أقيم بعد اليوم في مقابر الماضي ولا في احتمالية المثل:
"أتدري نفس بأيّة أرض تموت؟"
أنا الذي لا ذاكرة له.
أنا أبديٌّ في اللحظة.
أنا الحيّ الميت في لحظته، والمبعوث من رماده في اللحظة الثانية، لا أملك أفعالاً ماضية ولا سينات المستقبل، لي ياء الحاضر، وأفعالي وردود أفعالي.
وقتها لملم السّادن شظايا غضبي، ووضعها على مذبح الزمن، ونظر إليّ وقال: مغفور لك مستقبلك، وتابع صلاته على سجادة تحلّ وتحاك في اليوم الثاني.

دقيقة:
على يمين المذبح جوقة من الساعات تنشد تمام السابعة، أمدّ يدي إلى ألسنتها، أنزعها، أرمي بها إلى كلاب اللحظة، فتتنازعها فيما بينها، وتسيل الدماء من أجساد الكلاب المتعاركة حتّى تتكوّم فوق الألسنة، ألسنة أخرى.
أطبق فمي على لساني، أتحسّسه مازال موجوداً .

ساعة:
ينهي السادن صلاته، ثم يمشي باتجاهي، يمدّ يده صوبي، فأرسل يدي إليه، يرمي في كفّها ثلاثة عقارب، متفاوتة الظلال ويغادر من زاوية نظرة باتجاه يدي اليسرى ويقول: هذه الساعة معطلة بشكل كامل، لن تعمل بعد اليوم، تحتاج إلى ساعة أخرى.
٢٠٠٧ /٣/٢٠

متتالية العشق

الأمير:
في البدء كانتْ قامتها، ومن ثمّ، هي من عبرتِ الحكاية، تتقافز من عين إلى أذن، وكوني من مرتزقة حروب العشق، انفجر لغم بصيرتي بين يديّ وأطاح بقلبي الذي راح ينطّ وراءها كضفدع محكوم بأملِ "أن تقبّله من فمه".
٢٠٠٦\٣\١٢

الهبوط:
تقضم تفّاحتها قبالتي وتتضاحك مع صديقتها. أقنص شفتيها بقبلة طائرة. تشهق بشدّة، يصفرّ وجهها، تسعل، تكحّ، تسقط أرضاً والزّبد يحوّط فمها، أهرع إليها، أجذبها إلى أعلى، أزنّر بيديّ بطنها وأرفعها عدّة مرّات، تبصق قطعة التّفاح، فأسحبها نحو المقعد، بينما صديقتها تجلب الماء. تمسكني يدٌ من الخلف، ولكمة قاسية توقعني أرضاً، قطعة التّفاح أمامي، أتلمّس تفّاحة رقبتي.
٢٠٠٦\٣\١٣

مثل:
قد أفهمكِ، عندما أنتهي من حبّكِ؛ لأنّ بطّيختَي العقل والقلب، لا تُحملان بيد واحدة.
٢٠٠٦\٣\١٣

الخندق:
تطوّقني بيديها وساقيها، عندما نمارس الحبّ، وفي الصّباح، أجدها تطوّقني من ظهري بيديها وساقيها، كجنديّ يحمل رفيق سلاحه المصاب.
٢٠٠٦\٣\١٤

ورأى الله أنّ الحبّ جميل:
وحدث أنّني احتلمتُ، فدفع الزّمنُ قلبي لي، كأنّني يتيم سُلّمت له أمواله ما إن نضج، وهكذا صرت تاجراً ببضاعة العشق، فرحت أصيح على قلبي:(تازا وكبير يا قلب، تازا وكبير يا قلب)، فتتجمهر قربي النّساء، يغدقن عليّ بتزاحمهن، فتلكزني تلك بنهدها، وأخرى بوركها وهذه تلذّ حتى تكاد توقعني أرضاً، يتساءلن كم السّعر؟
- مرتفع قليلًا لكنّ نبضه فيه!
تأخذه واحدة منهنّ وتقول: إنّه ينفع كقرط، فتقاطعها أخرى: كليفة لفرك الجسم في الحمّام، لكنّهنّ في النّهاية يبتعدن، ويهززن أردافهن ساخرات من شاربي المخطوط بالشّحوار.

٢٠٠٦\٣\١٥

متتالية الاستبداد

نهيق الذاكرة:
ظلّ يتذكّر حافر الحمار الذي هرس له قدمه، عندما كان صغيراً؛ إلى أن اشترى له أبوه حذاءً من "الغوما٦" بعد بيع موسم الدخان، أمّا الآن، فقد نسي ذلك الحافر تماماً! بينما يدهس بحذائه، ذي النعل المضفّر، وقصبة الساق الطويلة، وبالقدم نفسها التي هرسها حافر الحمار في طفولته، وجه هذا الشيء الذي تذكّر-أيضاً- في لحظة صفاء، بعد أن دخل في غيبوبة، أنقذته لوهلة من الرفس، ذلك الحافر أيضاً.

السيجار:
تقفّعت يداه، وانجرحت من المسلّة التي يخيط بها أوراق الدخان، ولكنّه – دوماً- كان يُفرح نفسه بتلك الورقة التي يحتفظ بها سراً، ليلفّها كأعظم سيجار يتباهى به بين رفاقه.
سمحَ للشيء أن يسترجعَ أنفاسَه؛ بأن قدَّم له سيجارة، ما إن أشعلها بشفة مرتجفة حتى أطفئتْ في ظهره، بينما كان صاحب السيجار يزفر في هواء الغرفة، ذات اللمبة المتدلية، دخان سيجاره الكوبي.

الحزام:
كان نحيفاً في طفولته، أشبهَ بهيكل عظمي؛ فيتهدّل سرواله الفضفاض عن خصره. وكثيراً ما حدث في ماضيه، أن ضحكت عليه الفتيات، عندما بان حزّ إليتيه.
في الغرفة كانت المرأة الثملة من الضرب تمشي بغنج، وقد انسحب بنطالها لمنتصف إليتيها. تذهب، وتعود كاللمبة التي تتمرجح في وسط الغرفة؛ إلى أن أوقفها، وبدأ في جلدها بالحزام الذي انتزعه من سرواله بدون أن يتهدّل.

الغبار:
ركضوا خلف السيارة على الطريق الترابي الذي قسّم القرية إلى قسمين؛ شرقي وغربي؛ إلّا أنهم في كلّ مرّة ركضوا، عادوا خائبين، فلم يستطع أحد منهم لمسها، بل كانت جائزتهم الغبار الذي كساهم كأشباح صغيرة.
الشيء لم يكن يركض؛ بل ربط بحبل إلى السيارة التي كانت تدور في الساحة المعبدة بالإسفلت.

---

٦ – نوع من الأحذية المصنوعة من المطاط

الولادة:
كانت منفرجة الساقين كأنّها انتهتْ لتوّها قد من الولادة، فطفقت تحدّق إلى الأعلى، أعلى من اللمبة المتدلّية، وأعلى من السقف، بل من البناء أيضاً والسماء ذات النجوم كمآقي الضفادع بل أعلى وأعلى.

الفطام:
مضت أيام، والبيت مغلق بالشمع الأحمر، لم يتجرأ أحد من الجيران أوالأقارب بالسؤال لماذا؟ فقط الطفل الذي لم ينتبه إليه الذين اقتحموا البيت، وصمت والداه خوفاً عليه، يمصّ سبابة موته بغضب!
٢٠٠٧\٩\٢٩

المحتوى:

١- اللوحة
٢- المسافر
٣- موعد
٤- خمريات الحر
٥- الذبابة
٦- المطهر
٧- ولكن ... كعب البغل
٨- رجل منتصف العمر
٩- الرصيف الآخر
١٠- كابينة الهاتف
١١- ثياب
١٢- الشاعرة
١٣- رمادي
١٤- متتالية الساعاتي
١٥- متتالية العشق
١٦- متتالية الاستبداد